كتب الفقه

الكتاب الثالث

فقه العلم

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد
تذكير بمعالم المنهج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد ،،،

ففى الكتابين الماضيين : نحو فقه ميسّر معاصر... وفي أصول الفقه الميسّر: بيان وتفصيل لمنهجنا [1] الذى تبنيناه في كتابنا هذا الذى ننشده ، ونسأل الله العون والسداد فيه ، حتى نتمّه على ما يحب ويرضى : ولا بأس أن نذكر قارئنا هنا بالمعالم الأساسية لهذا المنهج متمثلا فى المبادئ أو الخطوات التالية :

١- رغم إيمانى بأن الفقه المنشود لإصلاح الأمة هو الفقه (بالمعنى القرآنى) وهو ما يشمل فقه آيات الله فى الكون وسننه فى الخلق والمجتمع ، وإيمانى بأن الثقافة الإسلامية وحدة متماسكة ، يتصل بعضها ببعض ... رغم هذا رأيت أن نمضى فى الفقه بمعناه الاصطلاحى ، بما يضم : فقه الفرد ، وفقه الأسرة ، وفقه المجتمع ، وفقه الدولة ، وفقه العلاقات الدولية ، وإن شئنا قلنا : فقه العلم والعبادة، وفقه الحلال والحرام ، وفقه الأسرة (الأحوال الشخصية) وفقه المعاملات، وفقه القضاء والشهادات والدعاوى ونحوها ، والفقه الجزائى الذي يعالج الجرائم والعقوبات النصية (الحدود والقصاص) والتعزيرية ، وفقه السياسة الشرعية الذى يشمل قضايا الفقه الدستورى وفقه السياسة المالية ، وفقه العلاقات الدولية ، وما يتعلق بذلك .

أما (الفقه الأكبر) كما سماه الإمام أبو حنيفة ، وهو (فقه العقيدة) فأولى به أن يُطرح مستقلاً ، وإن كان يمكن أن يوضع في فقه الإسلام الكلى ، ويُبدأ به، كما فعل ابن حزم فى (المحلى) والغزالى فى (الإحياء) .

---

(١) وقد تعرضنا له كذلك فى عدد من كتبنا مثل (الاجتهاد فى الشريعة) و (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) و(الفتوى بين الانضباط والتسيّب) و(الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد) و (شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان) .

٢- يدخل فى هذا الفقه : فقه الآداب الشرعية مثل : أدب الأكل والشرب، أدب التزاور ، أدب التحية ، أدب المشى والطريق ، أدب المجالس ، أدب الحديث ... ونحوها .

ولا يدخل فى ذلك : الأخلاق بمعناها الربانى مثل : الإخلاص ، والتوكل ، والشكر والصبر ، والورع والزهد ، والمراقبة والمحاسبة ، والخوف والرجاء ... الخ ، ومعناها الإنسانى مثل : الصدق ، والأمانة والعدل والإحسان والشجاعة والعزة والتواضع والحياء ... إلخ . فهذه قد خصصنا لها سلسلة بعنوان (فقه السلوك) وأصدرنا فيها أربعة كتب هى : الحياة الربانية والعلم ، والنية والإخلاص ، والتوكل ، والتوبة إلى الله ، ولا تزال السلسلة مستمرة بتوفيق الله .

٣- لا نعتمد فى هذا الفقه تقليد مذهب معين - نوجب على أنفسنا اتباعه - ونعرض عن المذاهب الأخرى ، وأقوال الصحابة والتابعين والأتباع وغيرهم ممن ليس لهم مذهب متبوع ولا منقرض ، فلم يلزمنا الله تعالى ولا رسوله اتباع مذهب فلان أو علان ، إنما ألزمنا اتباع الكتاب والسنة ، وما انبثق عنهما من أدلة ، كالإجماع والقياس ، والاستصلاح والاستحسان وغيرها .

وتحررنا من التقليد والعصبية المذهبية لا يجعلنا نطعن فى المذاهب ، بل نحن نحترمها كلها ، ونحب أئمتها كافة ، ونستفيد منها جميعًا : من اجتهاداتها وتخريجاتها وتعليلاتها وتطبيقاتها ، متخيّرين منها ما هو أرجح دليلاً ، وأوفق للزمان والمكان ، وأليق بتحقيق مقاصد الدين ومصالح الدنيا .

٤- أصول هذا الفقه هى الأصول المعتمدة لدى جمهور الأمة ، مع وقفات تجديدية وترجيحية فى بعض القضايا أشرنا إليها فى موضعها فيما سبق . كما نُعنى بالرجوع إلي المتقدمين أكثر من المتأخرين ، سواء فى الأصول أم فى الفقه ، فهم أوضح فكرة ، وأسلس عبارة ، وأدنى إلى التيسير ، وأبعد عن التعسير . كما يتجلّى ذلك في فقه الصحابة ، ويقرب منهم تلاميذهم من التابعين .

٥- وكذلك نهتم غاية الاهتمام بـ (مقاصد الشريعة) لأننا نؤمن بأن أحكام الشرع بصفة عامة معللة ، ولها أهداف تقصد إليها ، خلافًا للظاهرية الذين خالفوا جمهور الأمة فى ذلك .

ولكن مقاصد الشرع إنما تعرف باستقراء نصوصه فى محكم القرآن وصحيح السنة ، ولبس باتباع الأهواء ، أو تحريف الكلم عن مواضعه ، أو محاولة مسخ الإسلام ، وإخراجه عن طبيعته ووسطيته وتميزه ؛ ليتبع سنن غيره من الملل والنحل والفلسفات : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع .

والمنهج الذى ارتضيناه هو : التوفيق العادل بين النصوص الجزئية ، والمقاصد الكلية ، فلا نضرب هذه بتلك ، ولا نعمل طرفًا على حساب آخر . وهذه هى (الوسطية) التى نؤمن بها ولا نحيد عنها .

فلسنا مع عبيد الفكر الغربى ، الذين يريدون أن نمحو النصوص ، بدعوى العمل بمقصد الدين وروح الإسلام ، ومجاراة التطور ، ونحن نقول لهؤلاء : لماذا تطالبون الإسلام أن يتطور ، ولا تطالبون التطور أن يسلم ؟!

إن هناك منطقة فسيحة جداً فى الشريعة الإسلامية ، قابلة للتجديد والاجتهاد والتطور فى الأحكام ، وهى ما قام على أدلة ظنية في ثبوتها أو فى دلالتها أو فيهما معاً ، وهى المنطقة الأوسع مساحة فى الفقه الإسلامى – كما هو معلوم للدارسين – وهى معترك الآراء ومجال الاختلاف .

وهناك منطقة أخرى ، لا تقبل التطور ولا الاجتهاد ، فهى مغلقة ، وهى التى قامت على نصوص قطعية الثبوت والدلالة ، وهى منطقة ضيقة جداً ، ولكنها مهمة جداً ؛ لأنها تجسد (الثوابت) التى تمثل الوحدة الفكرية والشعورية والعملية للأمة ، ومنعها من الذوبان فى غيرها ، أو التفكك إلى أمم متباينة .

٦– مصادرنا تتمثل فى كتب الفقه بكل مذاهبه ، وكتب الفقه العام ، وفى كتب التفسير وخصوصاً ما يعنى بالأحكام ، وفى كتب الحديث وشروحه ، وخصوصاً ما يتعلق منها بالأحكام ، مثل كتب الإمام الطحاوى الحنفى ، والإمام البيهقى الشافعى ، (ومنتقى الأخبار) لابن تيمية الجَدّ ، و(بلوغ المرام) لابن حجر ، و(عمدة الأحكام) للمقدسى ، وشروحها للشوكانى والصنعانى وابن دقيق العيد ، وكذلك الكتب التى تعنى بأقوال الصحابة والتابعين والأتباع ، مثل : مصنف عبد الرزاق الصنعانى ، ومصنف ابن أبى شيبة وغيرهما ، وسنطبق هنا ما نادينا به من قديم من (الوصل بين الفقه والحديث) وإزالة الجفوة بينهما .

ونحن هنا ننظر أساسًا إلي القول ولا ننظر إلى قائله ، ونركز على ما يستند إليه من حجة واعتبار شرعى صحيح . فقد نأخذ بقول ضعّفه من قبلنا ، ولكن جدّ ما قوّاه ، ونشهر قولا كان مهجورًا ، ولكنه أصبح صالحًا لزماننا .

٧- نحاول فى هذا الكتاب - رغم أنه مكتوب لجمهور المثقفين وليس للمتخصصين وحدهم - أن يكون كتابًا علميًا حقًا ، فلا نصدر حكمًا إلا بدليله من الشرع أو العقل المهتدى بالشرع ، ولابد من توثيق الأدلة ، بنسبة الآية إلى سورتها وذكر رقمها ، وتخريج الحديث وبيان درجته باختصار ، وبيان مصدره ، ولا نكتفى بقولنا رواه أحمد أو أبو داود أو ابن حبان ، وقد التزمنا ألا نعتمد على حديث ضعيف ، فهو مرفوض فى الأحكام بإجماع .

وإنما عمدتنا الحديث الصحيح أو الحسن ، ولو ذكرنا حديثا دون ذلك فإنما هو للاستئناس لا للاستشهاد ، ويكون الاعتماد على غيره من النصوص أو القواعد والمقاصد .

٨- نجتهد فى ربط الحكم بحكمته التى توخاها الشارع من ورائه ، دون تكلف ولا افتعال ، فنحن نؤمن أن وراء كل حكم حكمة قصدها الشارع ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها ، وعلينا أن نكون حذرين من التعليلات الشاذة والغريبة ، والتعليلات القاصرة ، كما نجتهد فى ربط الأحكام بعضها ببعض ، حتى تتضح الصورة الكلية للشريعة ، أما أخذ الحكم منفصلاً عن غيره، فقد يؤدى إلى ظلم الشريعة ، وعدم فهمها على وجهها .

٩- هدفنا فى هذا الكتاب هو (تيسير الفقه) للمسلم المعاصر . وقد بينا (شرعية) هذا التيسير ، وأساسها النظرى من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وشدة حاجة الناس إلي التيسير فى عصرنا خاصة ، وذلك حتى نحبب الله تعالى إلي خلقه ، ونسهل تكاليفه عليهم ، فى زمن غلبت فيه المادية والنفعية، وكثرت فيه المغريات بالفساد ، والعوائق عن الصلاح .

وقد شرحنا المراد بـ (التيسير) هناك ، سواء كان تيسيرًا فى العرض والتناول

حتى يسهل فهم الشريعة ، أم كان تيسيراً فى الأحكام حتى يسهل العمل والالتزام بها ، من حيث العناية بالرخص ، والتضييق فى الإيجاب والتحريم ، وترجيح الأيسر لا الأحوط لعموم الناس ، والتيسير فيما تعم به البلوى ، ورعاية الضرورات والظروف المخففة ... إلخ ، وقد وضحناه بالتفصيل فليُرجع إليه .

وليس المراد بالتيسير لىّ أعناق النصوص ليًّا ، لإسقاط واجب ، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال ، فهذا تحريف ، لا تيسير .

١٠- الفقه الحقيقى هو الذى يجيب عن تساؤلات الناس ، ويحل مشكلاتهم ، فى ضوء أحكام الشريعة ، وليس الذى يعيش فى بطون الكتب والمراجع ، أو يحيا أهله فى صومعة منعزلة عن الناس . لهذا السبب سنجتهد أن نربط فقهنا بواقع العصر ، وحياة الناس ، وتيارات الثقافة والاقتصاد والسياسة وغيرها من المؤثرات فى حياة البشر . وسنضرب صفحا عن الأمور التى لم يعد لها وجود فى عصرنا ، مثل (الرق) وما يتصل به ، وسنعمل قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال . وسنأخذ من فقه علمائنا السابقين ما ينفعنا فى هذا المجال دون أن نلتزم به دائماً ، فهم قد أحسنوا حين أجتهدوا لزمنهم وبيئتهم، ونحن نحسن حين نجتهد لزمننا وبيئتنا .

وهذا هو ما اعتمدناه فى كل ما كتبناه فى الجانب الفقهى من (الحلال والحرام) إلى (فقه الزكاة) و (بيع المرابحة) و (فوائد البنوك) و (فقه الصيام) و(الفتاوى المعاصرة) و (فقه الدولة فى الإسلام) و (السياسة الشرعية) .

١١- لن نقصر اهتمامنا على (جسم الفقه) وحده ، بل نعنى بـ (روحه) أيضاً ، فلا نركز عنايتنا على الجانب المادى والشكلى والظاهرى وحده ، بل نُعنى بالروح والجوهر والباطن . وبهذا يتعانق الظاهر والباطن ، والشكل والجوهر ، والمادة والروح ، والدنيا والآخرة .

بل هذا الجانب فى الواقع هو الألصق بحقيقة الدين ، الذى مهمته أن يصل الناس بربهم ، ويذكرهم بمصيرهم وجزائهم ، ويجعل نجاتهم منوطة بقلوبهم لا

بجوارحهم ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة : ٥]

وفى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ،ولا صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

وبهذا يكون الفقه خيراً على صاحبه ، وينطبق عليه الحديث الصحيح : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » .

١٢ – لن نلتزم فى كتابنا هذا – دائماً – بتقسيم فقهائنا الأقدمين ، فقد نزيد ، وقد نحذف ، وقد نقدم ، وقد نؤخر ، وقد نطيل فى بعض ما قصروا فيه ، وقد نقصر فى بعض ما أطالوا فيه حسب أهمية الموضوع ، ومدى الحاجة إليه .

ولذا سنبدأ بـ (العلم) لا بـ (الطهارة) ونبحث فى (الطهارة) أموراً لم يبحثوها فيها عادة ، ونضيف إلي (العبادات الركنية) – من الصلاة والزكاة والصيام والحج – عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء ، وتلاوة القرآن ، ونشير إلي العبادات الباطنة ، مثل المراقبة والمحاسبة والتوكل ونحوها .

وسنطيل فى أشياء ذكروها تبعا ، أو أهملوها أصلاً مثل : (الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر) أو (الحسبة) ونحوها مما أخرجها بعضهم عن الإطار العام للفقه وأفردوها بالتأليف .

١٣ – سنتخير اللغة الواضحة السلسة العذبة ، متجنبين اللغة المعقدة ، والمصطلحات الوعرة ، وغموض متون الفقه ، التى كانت تبالغ فى الإيجاز إلى حد الإلغاز ، ليحفظها الطلاب ، متحرين أن نجمع ما استطعنا بين دقة الفقيه ، وإشراقة الأديب ، وحرارة الداعية ، فنحن نريد كتابنا هذا لتعليم الأحكام ، كما نريده للدعوة إلى الإسلام ، فهو كتاب علم ودعوة معاً .

وبالله التوفيق ، وهو وحده الهادى إلى أقوم طريق

فقـه العلـم

لماذا بدأنا بالعلم؟

جرت عادة فقهائنا من قديم أن يبدأوا مصنفاتهم الفقهية بكتاب (الطهارة) سواء كانت الطهارة الحسية : طهارة الثوب والبدن والمكان أم الطهارة الحكمية، التى تتمثل فى الطهارة من الحدث الأصغر بالوضوء أم من الحدث الأكبر بالغسل .

وذلك لأن الطهارة هى أول شروط الصلاة، والصلاة هى أول العبادات الإسلامية، وأعظمها شأنا، وأهم الأركان العملية التى بنى عليها الإسلام بعد الشهادتين .

ولكنا خالفنا فقهاءنا هنا، وبدأنا بكتاب العلم أو (فقه العلم) لا بـ (فقه الطهارة) مراعين للترتيب المنطقى، فالعلم سابق للعمل، كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه : العلم إمام والعمل تابعه .

العلم هو الذى يبين لنا الحق من الباطل فى المعتقدات، والمسنون من المبتدع فى العبادات، والصحيح من الفاسد فى المعاملات، والحلال من الحرام فى التصرفات ، والصواب من الخطأ فى الأفكار، والمحمود من المذموم فى المواقف والأفراد والجماعات .

ولهذا كان طلب العلم مقدما على طلب العمل . وقال إمام الهدى عمر ابن عبد العزيز: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[1] .

وقال الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق . والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح . فأطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة،

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر ج ١ ص ٣٣ .

واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم. فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم، فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا (١).

يعنى بهؤلاء: الخوارج، الذين لم تكن آفتهم فى قصور عبادتهم، فقد كانوا صواما قواما، حتى جاء فى الحديث الصحيح: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم» ولكن آفتهم قصور الفقه، وعدم التعمق فى فهم القرآن، فهم يقرأونه لا يجاوز حناجرهم، أى لا يدخل إلى عقولهم فيضيئها ويهديها.

ولهذا كان تقديم العلم واجبًا، فهو الذى يهدى إلى صالح العمل، كما أنه الذى يهدى إلى الإيمان أيضًا، فالعلم هو دليل الإيمان، كما أرشد إلي ذلك القرآن حين يقول: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٥٤].

هكذا بهذا الترتيب الذى دل عليه العطف بـ (الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب: ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم.. فالعلم يترتب عليه الإيمان، والإيمان يترتب عليه الإخبات والخشوع، ترتب الأثر على المؤثر.

ولأن العلم يسبق الإيمان والعمل، كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالي: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ - ٥]. أمر فيها بالقراءة وكرره، والقراءة هى مفتاح العلم، ونوه بالقلم وهو أداة نقل العلم وتثبيته.

ثم نزل بعدها قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ [المدثر:١-٧]. وكلها آيات آمرة بالعمل، وهو ترتيب فطرى ومنطقى: أن يؤمر بالعمل بعد العلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ٨٢.

وقد ذكر الإمام البخارى فى كتاب العلم من صحيحه : (باب : العلم قبل القول والعمل) . قال الحافظ ابن حجر فى شرحه : قال ابن المنيّر : أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ، مصحح للنية ، المصححة للعمل ....

واستدل البخارى لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث ، منها : قوله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...** ﴾ [محمد : ١٩] فبدأ بالعلم ، وثنى بالعمل ... والخطاب وإن كان للنبى ﷺ فهو متناول لأمته .

ومن هنا رأينا أن نبدأ بـ (فقه العلم) اهتداء بما أشار إليه القرآن من البداءة بقوله تعالى ﴿ اقرأ ﴾ .

وتأسيا بما صنعه الإمام البخارى ، حيث قدم كتاب الإيمان ، وكتاب العلم على العبادات من الطهارة والصلاة والزكاة وغيرها .

ولنا فيما صنعنا : سلف أيضًا ، هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، حيث بدأ بـ (العلم) فى كتابين له : أولهما (إحياء علوم الدين) وهو يشتمل على أربعين كتابا فى العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات ، وأول هذه الكتب : (كتاب العلم) . وكذلك فعل فى كتابه (منهاج العابدين) فقد جعل العقبة الأولى التى على السالك أن يقطعها فى طريقه إلى الله : (عقبة العلم) .

هذا وقد أصدرنا عدة كتب تتحدث حول العلم ، منها : كتاب (الرسول والعلم) وكتاب : (العقل والعلم فى القرآن الكريم) وكتاب (السنة مصدراً للمعرفة والحضارة) وكتاب (الحياة الربانية والعلم) . فليرجع إليها من أراد الزيادة فى المعرفة : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤].

* * *

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

الحث على التعلم :

من أبرز تعاليم الإسلام : الحث على طلب العلم . فقد خلق الله الناس غفلا من العلم ، ومنحهم من فضله أدوات العلم ووسائله ليتعلموا ، فإنما العلم بالتعلم . وهذه الوسائل هي : الحواس – وخصوصاً : السمع والبصر – والعقل . كما قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٨] وقال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فهذه هي الأدوات الثلاث الرئيسية في التعلم :

السمع : فيما محوره الكلمة ، وطريقه النقل .

والبصر : فيما يلاحظ ويشاهد ويجرب ، وعلى أساسه قامت العلوم الطبيعية والتجريبية كلها .

والفؤاد أو العقل : فيما يحتاج إلي إعمال نظر ، وترتيب فكر ، للوصول من المقدمات إلي النتائج ، ومن المعلول إلى العلة ، ومن المعلوم إلى المجهول .

وقال الشاعر :

تعلم ، فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل!

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » (٢) . ومعنى وضع أجنحتها له : التواضع والخشوع توقيرا له وتعظيما لحقه ، أو أنها تفرشها وتبسطها له ، لتحمله عليها حيث يريد ، تيسيرا ومعونة من الله ، أو أنها : تكف عن الطيران ، لأنها تحفه في مجلس العلم ، كما ورد في الصحيح .

وقد ورد : أن طلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله . روى الترمذي عن أنس مرفوعا : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » (٣) .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٩٩) .

(٢) هو جزء من حديث أبي الدرداء الذي رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان ، كما في صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧) .

(٣) رواه الترمذي في العلم برقم (٢٦٤٩) وقال : حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه . قال في فيض القدير : فيه خالد بن يزيد اللؤلؤي ، قال العقيلي : لا يتابع على كثير من حديثه ، ثم ذكر له هذا الخبر . وقال الذهبي : واه مقارب (٦ / ١٢٤) وقال الحافظ في (التقريب) : صدوق يهم .

كما تكاثرت النصوص من القرآن والسنة في التنويه بقدر العلم ومكانة العلماء، وفضل التعلم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩]. وقال سبحانه: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال الإمام الغزالي: فانظر كيف بدأ سبحانه بنفسه، ثم ثنى بملائكته، ثم ثلث بأولى العلم.

وقال عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨]

فالخشية ثمرة المعرفة، فمن عرف الله خشيه حق خشيته، بخلاف من يجهل مقام الله، فهو أجدر أن لا يخشاه، كالطفل يمسك بالنار فتلسعه، لأنه لا يعرفها.

وقال ﷺ: « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه »(١).

وقال الله تعالى في كتابه: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧].

وقال ابن عباس: ذللت طالبا، فعززت مطلوبا!

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة!

وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالا كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهمه، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه!

وقال أبو الدرداء: لأن أتعلم مسألة أحب إليَّ من قيام ليلة!

وقال: العالم والمتعلم شريكان في الخير، وسائر الناس همج لا خير فيهم.

وقال أيضا: كن عالما أو متعلما أو مستمعا، ولا تكن الرابع فتهلك! والرابع هو المعرض عن العلم.

ومما حكي من وصايا لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء(٢).

التأدب مع المعلم:

ومن آداب التعلم في الإسلام: توقير المعلم، والتأدب معه، حتى اشتهر

---

(١) رواه البخاري عن عثمان بن عفان (٥٠٢٧).

(٢) ذكر هذه الآثار الغزالي في (الإحياء) وخرجها شارحه الزبيدي في (الإتحاف).

بين المسلمين قولهم : من علمنى حرفا صرت له عبدا! وقد جاء فى الحديث النبوى : «ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا»(١) أى يعرف له حقه .

وقد ذكر لنا القرآن تلك الرحلة التاريخية التى قام بها نبى من أولى العزم من الرسل – وهو موسى الذى اصطفاه برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور – ليطلب العلم عند رجل لم يذكر القرآن لنا اسمه ، واختلف العلماء في شأنه : أهو نبى أم ولى ؟ وحتى إن كان نبيا – وهو الصحيح – فليس فى منزلة موسى قطعا . ويبدو أن موسى قطع هذه الرحلة ، هو وفتاه وخادمه على أقدامهما ، فلم يذكر أنهما كانا يركبان دابة ، ولذا قال فيها : ﴿ **آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا** ﴾ [الكهف : ٦٢] .

وفى هذه القصة التى قصها علينا القرآن يتجلى لنا بعض الآداب المهمة للتعلم .

أول هذه الآداب : الحرص على العلم مهما يكن فى طلبه من لأواء ومشقة وعناء . كما فعل موسى عليه السلام فى رحلته إلي « مجمع البحرين » وقد لقى فيها ما لقى من النصب .

والأدب الثانى : التلطف مع المعلم ، وإظهار الاحترام والتوقير له ، وهذا ما نلمسه بجلاء ووضوح فى تعامل موسى عليه السلام مع هذا العبد الصالح ، الذى عرف باسم « الخضر » عليه السلام ، فقد قال له موسى بأدب التلميذ مع المعلم : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [الكهف : ٦٦] .

والأدب الثالث : الصبر على المعلم ، وهذا ما فعله موسى مع معلمه ، فحين عرض عليه أن يتبعه ليعلمه مما علمه الله ، قال المعلم : ﴿ **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ [الكهف : ٦٧ – ٧٠] .

---

(١) رواه أحمد عن عبادة بن الصامت بإسناد حسن ، كما قال المنذرى فى الترغيب (المنتقى ٦٩) والهيثمى فى (المجمع ١ / ٢٧) وزاد فيه « ويعرف لعالمنا حقه » ورواه الطبرانى والحاكم إلا أنه قال : « ليس منا » (١ / ١٢٢ ، ١٢٣) .

والأدب الرابع : أن المؤمن لا يشبع من العلم ، وأنه يطلب أبدا الزيادة منه، كما قال الله لخاتم رسله : ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ [طه : ١١٤] . وهذا ما حرص عليه موسى : أن يضيف إلي علمه علما آخر .

تصحيح النية : وهناك أدب مهم نبهت عليه السنة النبوية ، وهو تصحيح النية : أن يتعلم العلم يريد به وجه الله تعالي . وبذلك يغدو طلب العلم عبادة وجهادا في سبيل الله . وفى الحديث الصحيح الشهير : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »(١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » .. يعنى ريحها(٢) .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا تَخَيَّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك ، فالنار النار! »(٣) .

العلم من المهد إلى اللحد :

والتعلم أو طلب العلم فى الإسلام لا يقف عند حد معين ، ولا عند سن معينة ، وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة : « اطلب العلم من المهد إلي اللحد » ، حتى ظنها بعض الناس حديثا نبويا ، وما هى بحديث ، ولكنها من مأثور التراث الإسلامى .

وكم رأينا من علماء السلف من يطلب العلم ، وهو على فراش الموت ، فيسأل بعض أصحابه أو أبنائه أن يقرؤوا عليه تفسير بعض الآيات القرآنية ، أو يرووا له بعض الأحاديث النبوية ، أو يذكروا له بعض المسائل الفقهية ، أو النحوية أو اللغوية ، أو نحو ذلك ، حتى يأتيه الموت ، وهو يطلب العلم .

وكم رأينا من الشيوخ الكبار فى السن ، والكبار فى العلم ، من يطلب

---

(١) رواه البخارى مفتتحا به جامعه الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(٢) رواه أبو داود (٦٥٨) وابن ماجه (٢٥٢) وابن حبان (الموارد : ٨٩) والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١ / ٨٥) ووافقه الذهبى وذكر النووى في (الرياض) أن إسناد أبي داود صحيح .

(٣) رواه ابن ماجة (٢٥٤) ، (٢٥٩) وابن حبان (الموارد : ٩٠) وقال البوصيرى فى الزوائد : رجال إسناده ثقات ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء : إسناد ابن ماجه صحيح ، وذكره الحاكم شاهدا ، وصحح إسناده ، وسكت عليه الذهبى (١ / ٨٦) .

العلم ، لا يستحى من شيخوخته ، ولا يستحى من مكانته ، ولا يجد فى ذلك غضاضة ولا حرجا ، ليحقق الحديث الشريف : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا » (١) .

وقد حكى لنا الحافظ ابن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم) فى هذا الجانب صوراً ، ووقائع شتى .

ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى الممات .

قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول – وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث – فقالوا له : إلي متى تسمع ؟ قال : إلى الممات.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغ مع أبى ببغداد، فمر بنا أحمد ابن حنبل، وهو يعدو، ونعلاه فى يديه، فأخذ أبى بمجامع ثوبه، فقال : يا أبا عبد الله، ألا تستحى ، إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ (يعنى : طلبة العلم) ! قال : إلى الموت .

وقال عبد الله بن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمرى ، والمحبرة بين يدى، ولم يفارقنى العلم والمحبرة !

وسئل أبو عمرو بن العلاء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما حسنت به الحياة !

وقيل لأحدهم : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال : إن كان الجهل يقبح منه، فإن التعلم يحسن به .

وسئل سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلي طلب العلم ؟ قال : أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح .

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه ، فإن التعلم يحسن به .

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة : أيحسن أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش (٢) .

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس ، وابن عدى عن أنس ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦٦٢٤) .

(٢) انظر : مفتاح دار السعادة : ١ / ٧٤ وجامع بيان العلم : ١ / ٩٥ وما بعدها .

العلم المفروض طلبه فرض عين

من العلم ما يفترض طلبه ، ومنه ما يستحب طلبه ، ومنه ما يباح ، ومنه ما يذم .

والعلم المفروض طلبه ، منه ما هو فرض عين ، ومنه ما هو فرض كفاية .

وفى الحديث المشهور على الألسنة ، الذى رواه ابن ماجة وغيره : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »(١) .

والمراد بالمسلم فى الحديث : الإنسان المسلم ، رجلا كان أو امرأة . ولهذا أجمعوا على أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة ، وإن لم يرد لفظ : « ومسلمة » فى رواية الحديث .

وقد اختلف شراح الحديث فى تحديد « العلم » المفروض طلبه . فكل صاحب اختصاص في علم أوله على العلم الذى يشتغل به .

فالمتكلم (المتخصص في علم الكلام والعقائد) قال : هو علم العقائد الذى يعرف به توحيد الله ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذا أساس الدين .

والفقيه قال : هو علم الفقه الذى يعرف به الحلال والحرام ، وتعرف به صحة العبادات ، واستقامة المعاملات على منهج الشرع .

---

(١) الحديث روى عن عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة . ولكن الحافظ السيوطى صححه بمجموع طرقه التى بلغت خمسين طريقا ، كما صححه في عصرنا المحدث الألبانى فى تخريج كتابنا (مشكلة الفقر) وذكر السخاوى أن ابن شاهين رواه بسند رواته ثقات . وهو فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٩١٣) ، (٣٩١٤) .

والمفسر قال : هو علم تفسير كتاب الله ، الذى هو أساس الملة ، ومرجع الأمة .

والمحدث قال : هو علم الحديث المبين للقرآن ، المجسد لسيرة الرسول ﷺ وأقواله وأعماله وتقريراته .

والمتصوف قال : هو علم طريق الآخرة ، والسلوك إلي الله تعالى ، وكيفية تزكية النفس ، وعلاج مداخل الشيطان إليها . . الخ .

والأصولى قال : بل هو علم أصول الفقه . الذى به يعرف الأستدلال فيما فيه نص، والاستنباط فيما لا نص فيه .

بل هناك من قال : علم العربية من النحو والصرف والبلاغة ، التى بها يفهم القرآن والحديث .

بل هناك من قال : هو علم الطب الذى يعرف به الصحة والمرض ، وقال : العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، وعلم الأبدان مقدم على علم الأديان . ذكره بعضهم ، وفيه نظر ، كما قال الزبيدى فى شرح (الإحياء) وإيراده فى فروض الكفايات أشبه كما سيأتى [1] .

رأينا فى العلم المفروض على كل مسلم :

والذى أراه هنا : أن بعض هذه الأقوال خلطت بين العلم المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة ، وهو ما يسمى (فرض العين) وبين العلم المفروض (فرض كفاية) . فعلم التفسير والحديث وأصول الفقة وعلوم العربية ، بل وعلم الطب : لابد منها ، علي مستوى الأمة ، لا على مستوى الأفراد . فهى من فروض الكفاية بلا ريب . وفروض الكفاية هى : ما لا تستغنى عنها الأمة في مجموعها ، ولابد

---

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين جـ ١ : كتاب العلم .

أن يقوم بها عدد كاف من أبناء الأمة يسد الثغرة ، ويلبى الحاجة ، وإلا أثمت الأمة كلها .

تعلم أصول التوحيد والعقيدة :

والذى نؤكده هنا : أن على المسلم أن يتعلم من دينه ما يعرف به ربه معرفة تصل إلي حد اليقين ، ويعرف به نبيه محمدا ﷺ ، ويستيقن بصدق نبوته ، وصحة رسالته ، وأن القرآن الكريم منزّل عليه من عند الله تبارك وتعالى ، بدلائل الإعجاز القرآنى الكثيرة . ويعرف العقائد الأساسية فى الإسلام : في الإلهيات ، والنبوات ، والغيبيات المتعلقة بالآخرة والعالم غير المنظور . . وأن يأخذ ذلك أساسا من كتاب الله تعالى بما فيه من بينات تقنع العقل ، وتنير القلب، بعيدا عن التقليد الأعمى ، وعن المماحكات الجدلية ، التى شاعت فى علم الكلام ، والتى أفسدت تفكير الخواص ، واعتقاد العوام . وسر ذلك : تأثرها بفلسفة اليونان . ولهذا نادى المحققون والمجددون المسلمون بوجوب (ترجيح أسلوب القرآن على أساليب اليونان) [1] .

والمطلوب هنا : أن تكون دراسة العقيدة مبنية على أساسين :

١ – القرآن الكريم ، لا على أنه يتضمن أخبارا وأدلة نقلية فحسب ، بل بما يتضمنه وما ينبه عليه من براهين ، لإثبات التوحيد والنبوة ، والجزاء الأخروى ، وغيرها ، فقد أنزله الله هدي للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، وقد ناقش الطوائف المخالفة من الملاحدة والمشركين وأهل الكتاب ، ورد عليهم بالأدلة العقلية ، التى سماها القرآن (البينات) .

والسنة النبوية مبينة لكتاب الله فيؤخذ من السنن الصحاح ما يبين القرآن ، وما يسير فى ضوئه .

٢ – العلوم الكونية الحديثة ، بما تكشف للناس من أدلة تعين الناس – وخصوصا المرتابين والمتشككين – على الوصول إلى اليقين فى وجود الله تعالى

---

(١) اسم كتاب بهذا العنوان للعلامة ابن الوزير اليمنى (ت ٨٤٠ هـ) .

وفي وحدانيته ، وإبداعه فى كونه ، وإحسانه لخلقه ، وتقرب منهم الحقائق الدينية من النبوة وأمور الآخرة ، بما يحمله الكون من براهين ناصعة ، تحقق وعد الله تعالى فى قوله : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] .

تعلُّم ما لابد منه من الفقه والأحكام :

كما أن على المسلم أن يتعلم من أحكام الإسلام وشرائعه ما هو فى حاجة إليه ، من علم الطهارة ، والصلاة اليومية – وهى الصلوات الخمس – والصلاة الأسبوعية ، وهى صلاة الجمعة الواجبة على الرجال . والمراد : معرفة الأساسيات لا المسائل الغريبة والنادرة ، ولا التفصيلات التى تترك للعلماء المتخصصين .

ومثل ذلك علم الصيام عندما يجئ رمضان ، ومثله علم الزكاة عندما يملك نصابها ، ويتعلم من أنواع الزكاة ما هو مفتقر إليه ، فإن كان تاجرا تعلم زكاة التجارة ، وليس مطالبا بمعْرفة زكاة الأنعام أو الزروع والثمار . وإذا قدر على الحج وعزم عليه عرف أهم أحكامه .

كما عليه أن يعرف أهم أحكام الحلال والحرام التى يتعرض لها المسلم فى حياته : في المأكل والمشرب والملبس والزينة ، والبيت ، والعمل ، وحياة الأسرة والمجتمع [١] .

وعلى كل مسلم أن يعرف ما يخصه من أحكام ، فالوالى يعرف أحكام الولاية ، والتاجر يعرف أحكام التجارة ، والطبيب يعرف أحكام الطب ، والزوج يعرف حقوق الزوجية وواجباتها ، وكذلك الزوجة ، والأب يعرف أحكام الأبوة والبنوة ، وكذلك الأم ... وهكذا .

وعلي كل مسلم أن يعرف من علم الأخلاق والآداب الشرعية : ما يضبط به سلوكه بضوابط الشرع ، فلا يحيد عما أمر الله به ، ولا يتجاسر علي ما نهى الله عنه ، متحليا بالفضائل ، متخليا عن الرذائل .

---

(١) وقد بينا ذلك فى كتابنا (الحلال والحرام فى الإسلام) الذى طبع أكثر من خمسين طبعة بالعربية ، وترجم إلى عشرات اللغات بحمد الله .

التمذهب ليس بلازم شرعا :

ولا يلزمه أن يتبع مذهبا معينا من المذاهب الأربعة أو غيرها ، لأن اللازم شرعا : ما ألزم به الله ورسوله فى الكتاب والسنة ، ولم يلزم الله ولا رسوله باتباع أبى حنيفة أو مالك أو الشافعى أو أحمد ، أو جعفر أو زيد ، أو غيرهم . فمن التزم بمذهب أحدهم فقد ألزم نفسه ما لا يلزم ، وضيق على نفسه فى أمر وسع الله فيه . وخصوصا إذا كان من أهل العلم ، ويمكنه أن يبحث عن الحكم بدليله . فلا ينبغى لمثله أن يرضى بالتقليد ، فقد أجمع العلماء المتقدمون على أن (العلم) هو معرفة الحق بدليله ، وأن التقليد المطلق ليس علما !

وإذا بحث العالم المستقل في أصول المذاهب ، ووازن بينها ، وارتضى أصول مذهب معين ، لأنه رآها أصوب وأرجح ، فلا حرج عليه فى ذلك ، ولا يكون مقلدا لإمام ذلك المذهب ، بل وافق اجتهاده اجتهاد ذلك الإمام . وقد يدع مذهبه إلي غيره فى بعض المسائل إذا أعوزه الدليل .

والأصل : أن العامى لا مذهب له ، إنما مذهبه مذهب من يفتيه من العلماء الذين يسألهم . فقد يسأل فى قضية زيدا ، وفى أخرى عمرا ، وفى ثالثة بكرا ، وهذا ما كان عليه الناس فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم ، يسألون فيما يعن لهم من أمور : من تيسر لهم من ثقات العلماء ، ولا يلتزمون بواحد فقط ، يخصونه بالسؤال دون غيره . ولهذا لم يعرف (التمذهب) في عصرهم رضي الله عنهم . وهم القوم الذين يقتدي بهم فيهتدى ، فهم خير قرون الأمة على الإطلاق ، كما صحت بذلك الأحاديث .

وإنما كان العامّىّ لا مذهب له ، لأن اختيار مذهب معين يقتضى معرفة أصوله ، والموازنة بينها وبين أصول غيره ، وترجيحها على سواها ، وهذه المعرفة والموازنة والترجيح لا يملكها العامى ، إنما يملكها العالم الذى بلغ قدرا من النظر والاختيار ، وعنده أهلية الترجيح .

وقد يقبل من الشخص العامى أن يتبع مذهبا من مذاهب الأئمة المعروفين إذا لم يجد فى بلده غيره ، كأن ينشأ فى بلد كل أهله حنفية أو مالكية أو

شافعية، أو حنبلية ، فيتمذهب بمذهب علماء أهل بلده ، على ألا يتعصب له بالحق وبالباطل . وإذا نصحه ناصح أمين من ثقات العلماء : أن مذهبه ضعيف في هذه المسألة ، واطمأن إليه قلبه ، فلا حرج عليه أن يدع مذهبه فى هذه القضية ، ويأخذ بالمذهب الراجح ، وهذا ما يسر إمامه الذى يدعى اتباعه .

ولا يجوز لمن قلد مذهبا معتبرا أن يذم المذاهب الأخرى أو يطعن فى أئمتها، فكلهم مجتهدون في معرفة الحق ، والوصول إلي الصواب بقدر الاستطاعة وبذل الجهد ، فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد، وهذا من فضل الله . كما أنهم جميعًا أئمة فى تقوى الله تعالى ، وفى الغيرة على الإسلام ، والشجاعة فى الحق ، وإيثار الآخرة على الأولى ، كما تشهد بذلك سيرهم ومواقفهم رضى الله عنهم .

تعلم أصول السلوك لطريق الآخرة :

وعلي كل مسلم أن يعرف من علم طريق الآخرة والسلوك إلي معرفة الله تعالى ومحبته وتقواه ما يساعده علي السير فى الطريق ، ويعينه علي معرفة أمراض الأنفس وسبل علاجها ، ويعرف مداخل الشيطان إلي القلب ، ويقوى البواعث الخيرة فى نفسه ، حتى يزكى نفسه ويفلح . كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩] ويترقى حتى يصل إلى درجة الإحسان الذي عرفه النبى ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

ويجب الحذر مما دخل هذا العلم من شوائب ومبتدعات ، كدرت صفاءه ، وأخرجته عن وسطية الإسلام فى الجمع بين الدنيا والاخرة ، والمزج بين المادة والروح ، والتوفيق بين العقل والقلب ، والموازنة بين المثال والواقع .

وينبغى الاعتماد هنا علي أئمة السلوك المتقدمين ، الذين يعتمدون فى تربيتهم وتوجيههم إلي الكتاب والسنة ، والحذر من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين (٢) .

---

(١) متفق عليه عن عمر من حديث جبريل المشهور .

(٢) قد شرعنا بتوفيق الله تعالى فى كتابه سلسلة فى (تيسير فقه السلوك) صدر منها أربعة أجزاء : « الحياة الربانية والعلم » ، « والنية والإخلاص » ، « والتوكل » ، « والتوبة إلى الله » ، وذلك حتى يستقيم السلوك فى ضوء القرآن والسنة .

وهذه هى العلوم التى يجب على كل مسلم معرفتها ، وهى – كما قلنا – موصولة بالكتاب والسنة ، فمعرفة هذه العلوم تتضمن معرفة ما يلزم المسلم من التفسير والحديث .

علوم مكملة :

وهناك علوم مكملة ، ينبغى للمسلم أن يلم بها ، مثل معرفة « السيرة النبوية » من كتاب معتمد علي الأقل ، ودراسة شئ من « علوم القرآن » و « علوم الحديث » أو مصطلحه ، في كتب ميسرة . وإذا تعمق فى العلم قرأ شيئا من « أصول الفقه » ، على أن تدرس هذه كلها فى كتب ميسرة بلغة سهلة معاصرة . والأولى بالمسلم أن يقرأ هذه العلوم على عالم متمكن ثقة ، حتى لا يقع في أفهام خاطئة ، وهو لا يدرى ، ولا يجد من يصحح خطأه ، وهذا ما حذر منه سلفنا الصالح حين قالوا : لا تأخذ العلم من صُحُفى ، ولا القرآن من مصحفى . يعنون بالصحُفى : الذى تعلم من الصحف أى الكتب وحدها ، ولم يتلق العلم من أهله وشيوخه ، بحيث يحضر ويسأل ويناقش ويفهم ، ويعنون بالمصحفى : الذى يتعلم القراءة من المصحف وحده ، دون أن يأخذها على يد القراء المتقنين ، كما تعلمنا نحن القرآن في الكتاب على أيدى القراء ، لوحا بلوح ، نكتبه ونقرأه قبل أن نحفظه ثم نحفظه ونسمّعه ، ثم نعيده ونثبته مرة بعد مرة . فمثل هذا (المصحفى) إن جاز له أن يقرأ لنفسه ، لا يجوز أن يكون مقرئا ومعلما لغيره .

ثمرة هذا التفقه فى الدين :

المهم أن يصل المسلم بمعارفه إلي حد يستطيع به : أن يزن أفكاره ومشاعره، وأقواله وأعماله ، وعباداته ومعاملاته ، وسائر أموره ، بميزان الشرع ، وأن يحكم علي الأشخاص والجماعات والمواقف والسياسات بحكم الإسلام ، ومن منطلق الإسلام ، بعيدا عن إفراط الغلاة ، وتفريط المقصرين ، فعلى أساس الإسلام يحمد ويذم ، ومن منظور الإسلام يحب ويكره ، ويقترب ويبتعد ، ومن أجله يرضى ويسخط ، ويصل ويقطع ، ويسالم ويحارب ، فما رضيه الشرع رضيه ، وما رفضه الشرع رفضه ، غير عابئ به ولا آسف عليه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وبذا يصبح هواه تبعا لما جاء به محمد ﷺ ، وهذا هو تمام الإيمان .

فرضية تعلم القراءة والكتابة في عصرنا :

ومن المفروض فرض عين فى عصرنا (فى رأيى واجتهادى) : أن يتعلم المسلم القراءة والكتابة ، ويزيل عن نفسه وصمة الأمية ، فقد أصبحت الأمية عائقا للأمة عن التقدم والتنمية ، وغدا التعلم من أسباب عزتها ، وانتصارها على عدوها ، وفى ميدان المنافسة الاقتصادية والحضارية فى عصرنا لا مكان لأمة أكثرها من الأميين !

ومن القواعد الشرعية المقررة : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومن الواجب أن تكون لأمتنا الصدارة والتقدم ، وأن نملك أسباب القوة والتفوق ، ولا يتم ذلك إلا بمحو أمية الأمة ، وشيوع التعلم فى أبنائها كافة ، وبذلك تنافس الأمم الأخرىٰ .

ولقد بدأ النبى ﷺ في محاربة الأمية فى حياته من السنة الثانية من الهجرة، حين جعل فداء الأسير الكاتب : أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة ، والواجب علينا اليوم أن نكمل المسيرة ، وألا نتخلف فى السباق الحضارى ، وحتى لا تبقى أمتنا فى ذيل القافلة ، والمفترض أن تكون فى مقدمة الركب ، باعتبارها خير أمة .

كيف يحصل المسلم العلم المفروض عليه ؟

وهنا يطرح سؤال تجب الإجابة عنه ، وهو : كيف يستطيع المسلم أن يحصّل العلم المفروض طلبه عليه ؟ وأى الطرائق أنفع له ؟

إختلاف الطرائق باختلاف الحال :

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف أحوال المسلم ، فالمسلم القارئ المتعلم غير المسلم الأمى .

التعلم عن طريق السماع :

فيستطيع المسلم أن يحصل هذا العلم المفروض عليه ، إما بالتلقى والسماع مشافهة من علماء ثقات فى علمهم وتقواهم ، وحسن فهمهم للدين وللواقع معا، وهذا ما يلزم الأميين ، وليس لهم خيار فى غيره . واجتهاد المسلم هنا في اختيار العالم الذي يتلقى منه ، ويجب أن يفرق المسلم بين العالم الواعظ الذى يأخذ منه الموعظة والتذكير ، والعالم الفقيه الذى يتلقى عنه الأحكام والشرائع، فليس كل واعظ مؤثر ، أو خطيب مفوه ، أو عالم بالتفسير أو الحديث : يكون ثقة في فقهه

وفتواه ، فإن الله وزع المواهب والقدرات بين الناس ، إلا من وهبه الله الجمع بين هذه الملكات والقدرات ، وقليل ما هم . وعوام المسلمين – بل كثير من متعلميهم – يخلطون فى هذا الأمر ، فيحسبون الوعاظ البلغاء فقهاء في أحكام الشريعة ، فيستفتونهم فى أعوص المسائل ، ويجيبهم هؤلاء حسب علمهم ، فيقعون فى أخطاء كثيرة وكبيرة ، وهم لا يشعرون ، ولو أنصفوا لقالوا لهم : اسألوا غيرنا ، فنحن لا نعلم ، ورحم الله امرءا عرف حده ، فوقف عنده ، وقد حذر الحديث الصحيح المتفق عليه من الذين يُسألون ، فيفتون بغير علم ، فيَضلون ويُضلون .

ومن وسائل التثقيف فى عصرنا : الشريط المسموع (الكاسيت) ، وهو وسيلة مهمة وسريعة التأثير ، ويمكن للإنسان أن يستخدمه وهو في سيارته ، أو فى محله ، أو المرأة فى مطبخها ، أو غير ذلك دون أن يكلف جهدا غير الاستماع والتفهم .

ويضاف إلي ذلك فى عصرنا : ما يبثه التلفاز والإذاعة من برامج دينية ، وما يمكن أن يقدم عن طريق جهاز (الفيديو) من أشرطة مرئية ومسموعة ، ويجب على المسلم الواعى أن يتخير ما يسمعه من هذه الأشرطة ، فليس كل شريط دينى يحسن سماعه ، فبعض هذه الأشرطة أشبه بالأغذية الفاسدة أو الملوثة بالاشعاع ونحوه ، فهى فى الواقع تضر أكثر مما تنفع ، وتهدم أكثر مما تبنى ، لأنها لا تقوم علي علم موثق ، وعلى أدلة شرعية صحيحة .

كما أن كثيرا منها يقوم على (المبالغة فى الترهيب) من عذاب القبر وعذاب الآخرة ، وتبنّي منهج التعسير لا التيسير ، والتنفير لا التبشير ، على خلاف ما أمر به النبى ﷺ .

ولقد حكى لي بعض الآباء أن ابنته تقوم من الليل مفزَّعة مرعوبة ، وأن ذلك لازمها منذ مدة ، وذلك بعد أن سمعت شريطا مبالغا فيه عن عذاب القبر، وما فيه من حيات كالأفيال ، وعقارب كالبغال ، إلي آخر ما يقال .

ويضاف إلى ذلك فى عصرنا : شبكة (الإنترنت) وما تقدمه من معلومات عن الإسلام .

وهذا يوجب علينا أن نحذر المسلم : ألا يأخذ دينه إلا من الثقات المأمونين، الموثوق بعلمهم ودينهم ، ولا يؤخذ الدين عن كل من هب ودب .

بل ينبغى للمسلم أن يتحرى ويتوخي الحذر فى كل مصدر يتلقى منه الدين ، فليس كل ما تخرجه المطابع من الكتب والرسائل موثوقا به ، فكم من كتب مليئة بالخرافات والأباطيل .

ومما ينبغى الحذر منه : الإسرائيليات في التفسير ، والأحاديث الموضوعة والواهية في الحديث ، والحكايات والمنامات غير المعقولة فى الوعظ والترغيب والترهيب .

وأوصى المسلم الذى ينشد الثقافة السليمة : ألا يأخذ حديثا إلا من عالم يعرف الحديث ، فليس كل العلماء والوعاظ يعرفون ذلك .

ويحسن بالمسلم أن يقتنى كتابا فى الأحاديث المشهورة مثل (المقاصد الحسنة) للسخاوى أو (كشف الخفاء والإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس) للعجلونى ، ونحوهما .

التعلم عن طريق القراءة :

كما يمكن للمسلم التعلم بالقراءة والمطالعة لكتب ألفها علماء ثقات كذلك ، وستظل للكلمة المكتوبة قيمتها وأثرها فى التوجيه والتثقيف ، وهى الأطول عمرا ، والأبقى أثرا . وينبغى للمسلم أن يتخير الكتب التى يقرؤها عامة، والتى يتعلم منها دينه خاصة ، فإن المطابع تخرج كل يوم السمين والغث ، والجديد والرث ، فكم فيها من أصيل نافع ، وكم فيها من دخيل ضار ، وعلى المرء أن يأخذ ما صفا ، ويدع ما كدر .

وقد قال أحد الحكماء : أخبرنى : ماذا تقرأ ؟ أخبرك : من أنت!

ونحذر هنا من سموم الكتب المقروءة، كما حذرنا من سموم الأشرطة المسموعة .

ومن الكتب ما هو معلوم ضرره ، بيّن خطره ، مثلُ كتب الملاحدة الجاحدين ، والمنصّرين المكشوفين ، ومنها ما يدس السم فى الحلوى ، مثل كثير من كتب العلمانيين والماركسيين وأمثالهم ، التى تضلل المسلم العادى عن الحق وتزين له الباطل من حيث لا يشعر .

ومن أشد الكتب خطرا : الكتب الدينية التي لا تستند إلى علم وثيق ، والتى حرمت من التمحيص والتحقيق ، فهى محشوة بالأباطيل ، حافلة بالمبالغات والأضاليل ، وكثيرا ما تروج بضاعتها عند الغوام الذين لا يميزون بين الطيب والخبيث .

ومن ذلك :كتب الحَرْفيين والغلاة المتشددين ، الذين يكادون يحرمون على الناس كل حلال ، ويتبنون التعسير لا التيسير ، والتنفير لا التبشير .

والواجب أن تكون هناك رقابة على ما يخرج للعامة من هذا النوع من الكتب والمنشورات ، كما تفرض الرقابة على الأغذية الفاسدة والملوثة والمنتهية الصلاحية ، وأعتقد أن الخطر على الفكر أشد وأقسى من الخطر على الجسم .

هذا وقراءة الكتب القديمة لا يحسنها كل أحد ، فهى تحتاج إلى أدوات ومفاتيح خاصة لفهمها لما فيها من مصطلحات ، وقضايا علمية متصلة بعلوم مختلفة ، لغوية وشرعية ومنطقية ، يستغلق فهمها على كثير من الناس ، ولابد من تلقيها علي شيوخها ، ليفكوا رموزها ، ويردوها إلى أصولها ، فمن قرأها وحده ، وليس مؤهلا لها ، كان كمن يسير فى الصحراء بغير دليل ، فيوشك أن يهلك ويضيع .

ومن هنا حذر الراسخون من علماء الأمة من أخذ العلم عن « الصُحُفيين » ويعنون بهم الذين يكونون علمهم من (الصحف) أي الكتب وحدها ، دون أن يعيشوا في مدارس العلم ، ويعايشوا أهله ، ويخالطوا شيوخه وتلاميذه ، ولهذا تشترط بعض الجامعات في عصرنا نسبة حضور الطالب للمحاضرات لا تقل عن ٧٥٪ ولا تقبل الانتساب إليها دون الحضور .

وجوب سؤال أهل العلم فيما يشكل على المسلم :

وفرض علي المسلم أن يسأل فى كل ما يعترضه من مسائل أو مشكلات يجهل فيها حكم الشرع ، ولا يجوز له أن يعمل فيها بهواه ، أو حسب رأيه الخاص ، أو رأى من ليس من أهل العلم والفتوى . ولا عذر له في ترك السؤال حياء ، أو كبرا ، أو كسلا ، أو انشغالا بأمر الدنيا ، قال تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٤٣] ﴿ **فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

وقال ﷺ فى شأن قوم أهملوا السؤال فى واقعة حدثت لهم ترتب عليها قتل امرئ مسلم : « قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال »(١) .

ويجب على المسلم أن يسأل من العلماء من يطمئن إلى رسوخ علمه ، وإلى قوة دينه ، وإلى اعتداله ، وبعده عن الغلو والتسيب ، ويجتهد فى ذلك ما استطاع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

* * *

---

(١) رواه أبو داود عن جابر – صحيح الجامع الصغير (٤٣٦) ورواه بلفظ آخر أحمد وأبو داود والحاكم عن جابر – المرجع نفسه ، (٤٣٦٣) .

فرض الكفاية فى العلم

وأما فرض الكفاية ، فقد يكون فى علوم الدين ، وفى علوم الدنيا .

التبحر فى علوم الدين :

فأما علوم الدين ، فما ليس بفرض عين فيها ، فإن تعلمه والتبحر فيه فرض كفاية ، بحيث يظل فى الأمة من إذا استفتى أفتى بعلم ، وإذا استُقضِى قضى بحق ، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة .

يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم ، إنما أوجبه على طائفة فى كل فرقة ، سواء أكانت هذه الطائفة اثنين أو أكثر أو أقل ، ما دامت تكفى لوظيفة التفقيه والإنذار .

ولا يجوز للأمة أن تهمل هذا الأمر ، حتى لا يوجد فيها من يفتى الناس ويعلمهم ويذكرهم ، كما يدل عليه الحديث المتفق عليه «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ، ينتزعه من صدور الناس ، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما ، اتخذ الناس رؤوسا جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا»(١) .

والواجب على الأمة – بالتضامن – أن تهيئ من أبنائها من يقوم بهذه المهمة فى الإفتاء والتفقيه والتعليم والدعوة والإرشاد ، في صورة التخصص العالى ، والعلم الاستقلالى ، وأن يكون لديها العدد الكافى بحيث يلبى حاجتها فى كل بلد من البلدان ، ويجب أن تهيئ له من الأسباب ، وتنشئ لذلك من المعاهد والكليات : ما يحقق الغرض المنشود .

التفوق فى علوم الدنيا :

وأما علوم الدنيا ، فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالى ، وهو أن فرض

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو ، (اللؤلؤ والمرجان : ١٧١٢) .

الكفاية منها : كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، كالطب ، إذ هو ضرورى في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب ، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد (يعنى : دخل عليهم الحرج والمشقة) وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . (أقول : وقد يحتاج البلد إلي أكثر من واحد ، فالمهم أن يوجد العدد الذى يكفى ويسد الحاجة المطلوبة) .

قال : « ولا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة ، فإنه لو خلا البلد من الحجام (الذى يقوم بجراحة الحجامة ، وهو نوع من الجراحة الخفيفة) تسارع الهلاك إليهم ، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلي استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله .

« وأما ما يعد فضيلة لا فريضة ، فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة القدر المحتاج إليه »(١) .

وما قاله الغزالى هنا قوى وموافق لمقاصد الشريعة ، فإنها تقصد إلي إنشاء أمة قوية عزيزة مكتفية بذاتها ، قادرة على التصدى لأعدائها ، وهذا يوجب عليها – بالتضامن – أن تتفوق فى كل العلوم الطبيعية والرياضية التى تحتاج إليها الأمم في عصرنا لتنمو وتتقدم ، وليس الطب والحساب فقط ، فإنما قال هذا باعتبار زمانه . كما تحتاج الأمة فى زمننا إلى الصناعات التكنولوجية المتطورة ، وليس أصول الصناعات القديمة وحدها ، فكل ما يؤدى إليها ، ويعين عليها ، فهو فرض كفاية على الأمة ، حتى تكون سيدة نفسها ، ولا تكون عالة علي غيرها .

إن الغرب قد ساد العالم فى عصرنا – ومنه العالم الإسلامى – بما ملك من علوم الدنيا ، من الفيزياء والفلك والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا وغيرها ، وأنشأ ثورة بل ثورات فى العلوم ولاسيما فى مجال الألكترونيات والفضائيات والذرة والهندسة الوراثية وغيرها ، وفى مجال الأسلحة والأدوية ونحوها .

---

(١) إحياء علوم الدين (١ / ٢٨) طبعة دار الشعب ، بمصر .

وقد أدى انفصال الإيمان عن العلم في الغرب : أن أصبح هذا العلم – فى الجانب العسكرى – خطرا يهدد العالم بأسلحة الدمار الشامل : النووية والكيماوية والجرثومية .

كما أصبح مجالا لصناعة أدوية غير مأمونة ، بل غير مشروعة ، يروجها أناس لا يخشون خالقا ولا يرحمون مخلوقا .

وكذلك أمسي الناس يخافون من تطور علم (الجينات) وتقدم الهندسة الوراثية ، والقدرة على استنساخ الحيوان : أن يدخل ذلك عالم الإنسان .

ولا علاج لذلك إلا أن يكون العلم فى حضانة الإيمان ، وأن يدور في فلك القيم والأخلاق ، وهذا ما يوفره الإسلام لأهله : حيث يوجب على المسلم أن يكون العلم نافعا للناس لا ضارا بهم ، وقد استعاذ النبى الكريم من علم لا ينفع .

مناقشة للإمام الغزالى في اعتباره تعلم الدقائق فضيلة لا فريضة :

هذا ولا نوافق الإمام الغزالى على اعتباره التعمق في دقائق الحساب ، وحقائق الطب : مجرد فضيلة لا فريضة ، فلعل هذا كان بالنسبة إلي زمنه ، أما زمننا فيعتبر التعمق فى هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض (الجيولوجيا) والأحياء (الحيوان والنبات) وعلوم البحار والصحراء ، والتشريح ووظائف الأعضاء وغيرها ، بحيث يصل إلي دقائقها ، ويرتقى إلى حقائقها : فريضة لازمة ، والأمم تتسابق في هذا تسابقا خطيرا ، كل منها تحاول أن تحتل مكانا يجعل لها قدرا ، وأن تهيئ الفرص للنوابغ من أبنائها ليتعمقوا ويتفوقوا .

ولولا التعمق في هذه العلوم ما وصل عصرنا إلى تحطيم الذرة ، وغزو الفضاء ، وصناعة (الكمبيوتر) والإنترنت والثورة التكنولوجية ، وثورة البيولوجيا (هندسة الوراثة والجينات) وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات ، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا .

وقد لا يكفى واحد متخصص فى جانب لإسقاط الحرج والإثم عن الأمة ، إنما هذا بحسب الحاجة، والغالب أن الأمة تحتاج فى كل مجال إلي فريق كامل من الخبراء ، يسدون الثغرة ، ويلبون الحاجة ، ويورثون الخبرة لمن بعدهم .

إتقان العلوم الطبيعية والرياضية :

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصرى أو الغربى : أنه لا يقوم على المنطق الشكلى أو الصورى أو القياسى الذى ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع فى نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبى» ويسمى منهجه «المنهج التجريبى». وهذا يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التى هى أساس التقدم المادى اليوم، والقرآن والسنة يدعوان الأمة إلى الانتفاع بكل ما سخره الله للإنسان فى هذا الكون ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية :١٣].

والإسلام يحترم مبدأ التجربة، ويقرها فى أمور الدنيا المتغيرة والمتطورة أبدا.

وهنا أيضًا نجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - سبق إلى إقرار مبدأ التجربة فى الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه فى هذا فهو مطلوب شرعًا، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعًا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهى واد غير ذى زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحى والدين الذى لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير فى ذلك الموسم، فخرج الثمر رديئًا. فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحى الإلهى، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم فى النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحى أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة فى صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس رضى الله عنهم.

ففى المسند عن طلحة رضى الله عنه قال: مررت مع النبى - ﷺ - فى نخل المدينة، فرأى أقواما فى رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال: يأخذون من الذكر فيحطون فى الأنثى، يلقحون به، فقال: «ما أظن ذلك يغنى شيئا. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئًا. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «إنما هو ظن ظننته، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل: فلن أكذب على الله»[1].

وفى صحيح مسلم[2] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأيى، فإنما أنا بشر».

وفيه[3] من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصًا - بسرًا رديئًا - ما لنخلكم؟!". قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالقانون الذى يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذى تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفى العقل الإنسانى فى هذه الأمور هاديًا ودليلاً. أما الوحى فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادئ العامة والضوابط. ثم يدع البشر يتصرفون تبعًا لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

تعلم اللغات عند الحاجة:

ومن فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة: تعلم لغات الآخرين عند الحاجة إليها، وخصوصًا إذا كان عندهم ما ليس عند المسلمين، من علم يؤخذ أو حكمة تقتبس، فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته. ولم يمنع الإسلام من تعلم لغات الآخرين، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة للتفاهم بين البشر، كما أنها وسيلة لنشر دعوته فى العالم، فهى هنا فرض كفاية.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسند طلحة حديث رقم ١٣٩٩ قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح وقد جاء فى المسند مختصرا برقم ١٣٩٥ ورواه مسلم أيضا برقم ٢٣٦١.

(٢) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج برقم ٢٣٦٢. (٣) رقم ٢٣٦٣.

وذلك أن رسالته ﷺ ، رسالة عالمية ، فهو – وإن كان عربيًا ، والكتاب المنزل عليه عربي ، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم – قد بُعث للناس كافة ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

فلا بد من تراجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى ، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم ، وتلقى الإجابة منهم . وقد كان عنده – ﷺ – من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية ، ويكفيه هم الترجمة منها واليها ، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانية التى يكتب بها يهود ، فأمر بذلك كاتب وحيه الأنصارى النابغة : زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ليتقنها قراءة وكتابة ، ويستغنى بها عن الوسطاء من اليهود فى ذلك ، وبخاصة أنهم غير مأمونين .

قال زيد : أمرنى رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى ، فما مر لى نصف شهر حتي تعلمته وحذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم (١) . ولعله كان على شئ من المعرفة بها من قبل (لمجاورة الأنصار لليهود) حتى أمكنه أن يحذقها فى هذه المدة القصيرة .

ومن هنا حرص كثير من المسلمين – فى عصور ازدهار حضارتهم – على معرفة اللغات ، فترجموا منها وإليها ، وقال فى ذلك الشاعر :

بقدر لغات المرء يكثُر نفعه ... فتلك له عند الملمات أعوان

فأقبل على درس اللغات وحفظها ... فكل لسان فى الحقيقة إنسان!

---

(١) رواه البخارى ، وأبو داود ، والترمذى – انظر – جمع الفوائد وأعذب الموارد جـ١ حديث ٣١٩ ط المدينة المنورة .

إتقان علوم الإحصاء :

ومن فروض الكفاية على المسلمين : إتقان (علوم الإحصاء) وما يتعلق بها، لاستخدامها في شؤون الحياة المختلفة .

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور ، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس ، فإن النبى ﷺ ، قد بادر إلي الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : «احصوا لي كم يلفظ الإسلام» .

وفى رواية للبخارى أنه قال : «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» قال حذيفة : فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل [1] .. الحديث .

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التى يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أى القادرين على القتال .

والإحصاء الذى تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر ، يرينا إلي أى حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفى مقابل هذا نجد في «العهد القديم» : أن أحد أنبياء بنى إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء ، فنزلت عقوبة سماوية بهم ! كأنما (الإحصاء) يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلهية . وهذا ما استنبط منه الفيلسوف الوضعى المعاصر الشهير

---

(١) انظر : جامع الأصول ، جـ ١ ص١٠٠ حديث ٧٥٧٠ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

«برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس : لا تتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية .

علم التخطيط للمستقبل :

ويدخل فى فروض الكفاية اليوم : ما يسمى (علوم المستقبل) وهى التى تستشرف آفاق المستقبل ، فى ضوء إمكانات الحاضر الظاهرة والمخبوءة، والمكنونة فى طاقات الأمة وعلاقاتها بما حولها ومن حولها ، وما تنبئ عنه الدراسات العلمية، التى تعطى ترجيحات لما يتوقع ، علي سبيل الظن ، لا القطع واليقين ، وهذا يكفى للتخطيط للمستقبل على هذا الأساس العلمى المقدور عليه .

ولا يجوز للمسلمين أن يعيشوا بمعزل عن هذه العلوم التى تتقدم وتتطور يوما بعد يوم ، وتخدمها عقول كبيرة ، ومؤسسات ضخمة في أنحاء العالم .

ولا ينبغى اعتبار ذلك من باب (التنبؤ بالغيب) الذي لا يعلمه إلا الله، لأن هذا فى الغيب المطلق ، أما الغيوب النسبية التى جعل الله للبشر سبيلا إلي استشفافها وإدراكها بوسائل معينة ، فى دائرة السنن الإلهية ، فليست فى نطاق المحظور شرعا . إنما هى أشبه بعلم الأرصاد الجوية ، الذى يتنبأ بالحرارة والبرودة ، ونزول المطر ، ونحو ذلك ، بناء علي ظواهر جوية مشهودة، لها آثارها المعهودة ، وبناء عليها يتوقع ما يحدث من تغيرات المناخ .

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالة عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين فى موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمى للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التى جعلت العلم مقابلاً للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أن فكرة الدين فى جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل، ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى: من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولا بد له أن يخطط حياته ويرسم لنفسه منهاجًا وفق عقيدته يوصله إلى الغاية، وهى رضوان الله ومثوبته.

وفى القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولى الألباب، وهى قصة نبى الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعى لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف - بما الهمه الله، وعلمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة، ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها، : ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾

[يوسف: ٤٧ - ٤٩]

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافى التوكل على الله، أو الإيمان بقضائه، وقدره، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق أن الذى يتعمق فى دراسة كتاب الله، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير ضابط، ولا رابط ولا نظام. وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطراح الأسباب أو إغفال السنن، التى أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلا: يا رسول الله، أأعقل ناقتى وأتوكل أم أطلقها وأتوكل؟ فقال له: «اعقلها وتوكل» (١).

---

(١) رواه الترمذى من حديث أنس، وقال: غريب أى ضعيف، وأنكره يحيى القطان، لكن أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمرى، وإسناده - كما قال الزركشى: - صحيح - ورواه عنه أيضًا ابن خزيمة فى صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده - كما قال الزين العراقى: - جيد - انظر: فيض القدير جـ ص ٧ حديث ١١٩١.

وقال الإمام الطبرى يرد على من زعم أن تعاطى الأسباب يؤثر فى كمال التوكل: الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسُنته وسنة رسوله، فقد ظاهر - ﷺ - بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشِّعب، وخندق حول المدينة، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك [1]. ا.هـ.

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأُهبته، آخذاً حذره، مقدراً جميع الاحتمالات، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات، مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة فى ذلك الوقت.

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضاً: موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين فى هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ**

---

(١) نقله الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٩ ص ٩٢ ط دار الجيل بيروت.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٢ – ٨]

وهكذا ... فقد كانوا – وهم فى فجر الدعوة، ورغم الضعف والاضطهاد – على صلة بالصراع العالمى بين الدولتين العظميين فى ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقى والغربى، ولمن سيكون المستقبل منهما؟ وهل سيبقى الوضع على ما هو عليه أو سيتغير؟ ولصالح أى الفريقين؟

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ فى هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمى، والتوكل الإيمانى جنباً إلى جنب.

فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذى سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذى سيصحبه فى رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبى بكر رفيقاً.

واطمأن إلى الفدائى الذى سيبيتُ مكانه، معرضاً نفسه لاحتمالات الخطر، وغدارات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من على ابن عمه أبى طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخرّيت الذى يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركاً أميناً، هو عبد الله ابن أريقط. وهو ما أخذ منها الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التى سيمتطيها هو وصاحبه ودليله فى سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذى يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذى يختفى فيه أيامًا معدودة، حتى تخف حدة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره فى غير طريق المدينة ، زيادة فى التعمية على القوم، فكان غار « ثور » .

وأعد فريق الخدمة الذى يأتى بالزاد، والأنباء خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبى بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يأتى بغنمه فيحلبون منها ويعفّى على آثار أسماء وعبد الله .

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووضع فيها كل جندى فى دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبى بكر، غير دور على، غير دور أسماء، وكل فى موقعه الصحيح .

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفى لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه فى الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال : لو نظر أحدهم تحت قدمية لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »؟﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠]

وهنا تجلى دور « التوكل » الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما فى وسعه، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده . وهنا تقع « إن الله معنا » موقعها وتؤتى أكلها .

اقتباس كل علم نافع من أهله :

ومن فروض الكفاية على المسلمين : اقتباس كل علم ينفع الإسلام وأهله، ولو كان من عند غير المسلمين، كما رأينا الرسول الكريم كيف استفاد من أسرى المشركين فى بدر فى تعليم أولاد المسلمين الكتابة، وقد تعلم منهم الشاب الأنصارى النابه : زيد بن ثابت، وأصبح من كتاب الوحى بعد ذلك .

وقد روى الترمذى وابن ماجه بإسناد ضعيف – حديث:

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها» (١).

والحديث – مع ضعف إسناده – صحيح المعنى، ولهذا عمل بمقتضاه المسلمون، وانتفعوا بما لدى الأمم الأخرى من علم وحكمة.

وقال على رضى الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدى المشركين (٢).

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة، التى لا تصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة، يدين بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجًا فى اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات، وغيرها من أمم الحضارات القديمة، مثل اليونان، والفرس، والروم والهنود ولا سيما اليونان.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التى تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر فى وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبى ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئا من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله تعالى قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهى معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى النبى ﷺ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فرآه النبى ﷺ فغضب فقال: «أمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ (٣) والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها

---

(١) الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

(٢) «جامع بيان العلم» ج ١ / ١٢١.

(٣) متهوكون: أى متحيرون، يعنى هل أنتم متحيرون، أو مترددون فى عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟

بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذى نفسى بيده لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى» (١).

وإنما غضب النبى ﷺ، وتغير وجهه واشتد فى إنكاره، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق. وخصوصا فى فترة النشأة والتكوين، فيجب التشديد فيها، حتى لا يختلط الدين الحق بغيره من الأباطيل.

أما علوم الحياة وفنونها، وما يهتدى إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر، نأخذه من أى وعاء خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ، يستفيد من أسرى المشركين فى محو الأمية، ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة، وهى من أساليب الفرس، ويستخدم المنجنيق فى حصار الطائف، ويخطب على المنبر، وهو صنعة نجار رومى.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أمورًا لم يكن للعرب بها عهد، إنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذ رأوا فيها صلاحًا ونفعًا، فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ، وفكرة تدوين الدواوين، وغيرها، مما اعتبره المؤرخون من (أوَّليات عمر).

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبى ﷺ، أخذًا مما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابى للمسلمين بعد الهجرة (٢).

ومن هنا لا نرى بأسا ولا حرجا فى اقتباس أمتنا للعلوم التجريبية، أعنى العلوم الطبيعية والرياضية التى تفوق فيها الغرب، وإن أخذ مبدأها منا،

---

(١) رواه أحمد كما فى «ترتيب المسند» للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ـ كتاب العلم ـ رقم ٦٣ ونقل فى تخريجه من صاحب «التنقيح» أن رجاله رجال الحسن، وهو عند أحمد. وابن ماجة عن ابن عباس، وإسناده حسن، وعن ابن حبان عن جابر أيضا بإسناد صحيح. وفى الباب عن عبد الله بن ثابت الأنصارى عند أحمد وابن سعد والحاكم فى «الكنى» والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى شعب الإيمان، وعن جابر عند الدارمى.

الفتح الربانى ج ١ ص ١٧٥.

(٢) انظر: «التراتيب الإدارية» أو نظام الحكومة النبوية للكتانى جـ١ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

واقتبسها من حضارتنا ، فهى بضاعتنا ترد إلينا ، ولكنه فى الواقع طورها وأضاف إليها ، وارتقى بها ارتقاء هائلا ، استطاع بها أن يصل إلى القمر ، ويحاول غزو الكواكب الأبعد .

أ – فعلينا أن نستفيد من هذه العلوم الكونية إلي حد الاتقان والتفوق ، حتى نملك أسرارها ، ولا نصبح عالة على غيرنا .

ب – ويجب علينا أن نربطها بالإيمان والتوحيد ، من حيث متعلقاتها وغاياتها وفلسفتها، باعتبار تجسّد سنن الله في الكون، وآياته فى الآفاق وفى الأنفس، ونعمه تعالى فى تسخير ما في السموات وما فى الأرض جميعا منه للإنسان خليفته فى هذا العالم. وهذا ما ينبغى أن يكون عليه تعليم هذه العلوم للناس.

جـ – وعلينا أن نربط هذه العلوم من حيث نتائجها واستخداماتها العملية بالقيم والأخلاق ، فلا تستخدم فيما يضر الإنسان ماديا ولا معنويا ، ولا فيما يغوى الظالم على ظلمه ،والمبطل على الاستمرار فى باطله ، وتوسيع دائرته ونشره ، ولا فيما يلوث الحياة والبيئة ، ويخل بالتوازن الكونى .

إن العلم في رسالتنا يبنى ولا يهدم ، ويحيى ولا يميت ، لأنه ناشئ فى حضانة الإيمان ومن أوتي العلم قال ما قاله سليمان حين أتي بعرش ملكة سبأ : ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل :٤٠].

* * *

الإسلام والعلوم الإنسانية

ولا بد لنا أن نجيب عن سؤال كبير هنا، يسأله كثيرون من المسلمين، وهو: ما موقف الإسلام من «العلوم الإنسانية» وذلك لما لهذه العلوم من بعيد الأثر، وعظيم الخطر، على اتجاهات الثقافة والفكر فى مجتمعاتنا الإسلامية.

فهذه العلوم التى تتصل بالإنسان - من علوم النفس، والاجتماع، والتربية، والأخلاق، والفلسفة، واللسانيات، والاقتصاد، والقانون، والتاريخ، وغيرها - هى التى تصنع أذواق الناس وميولهم، واتجاهاتهم العقلية والنفسية والسلوكية، وتؤثر فى تكوين الشخصية الإنسانية للفرد، والشخصية الحضارية للأمة.

ولهذا تختلف هذه العلوم من أمة إلى أمة، ومن مجتمع إلى آخر، تبعا لفلسفته فى الحياة، ونظرته إلى الدين والدنيا، وللفرد والمجتمع.

فإذا لم تكن هذه العلوم معبرة عن عقائد الأمة وقيمها وأهدافها الكبرى، وإنما تعبر عن مُثل قوم آخرين ومبادئهم وأفكارهم وفلسفتهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية، فإن إثمها يكون أكبر من نفعها، وتكون معول هدم لمعنوية الأمة ووحدتها، بدلا من أن تكون أداة بناء وتشييد.

إن نقل العلوم الإنسانية عن الآخرين نقلا حرفيا بما وراءها من أصول نظرية واتجاهات فلسفية: أشبه بـ (نقل الدم) من إنسان لآخر، فإذا كان من فصيلة غير فصيلته - ولو كان نقيا من أى ميكروب أو تلوث - فقد يكون سببا فى هلاك المنقول إليه، فكيف إذا لم يسلم من التلوث؟

ليس معنى هذا إغلاق الأبواب والنوافذ أمام هذه العلوم، ورفض كل مقرراتها ونتائجها.

فليس هذا شأن المسلم الذى يلتمس الحكمة من أى وعاء خرجت.

وقد رأينا النبى ﷺ يقول، فيما رواه البخارى: «أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل». وهو مطلع قصيدة للبيد بن ربيعة قالها فى جاهليته، ولم ير النبى الكريم حرجا فى الاستدلال بها والاستفادة منها.

وقد رأينا كثيرا من الصحابة – مثل ابن عباس – يستشهدون بأشعار مما قاله شعراء الجاهلية ويفسرون بها القرآن، كما رأيناهم يقتبسون من بعض نظم الفرس والروم ما لا يتعارض مع شريعتهم.

فلا غرابة أن نأخذ من العلوم الإنسانية اليوم ما ثبتت علميته، وموضوعيته، وقامت الأدلة المنطقية، أو التجريبية على صحته.

والذى يهمنا تأكيده هنا: أن نقف من هذه العلوم موقف الأحرار، لا موقف العبيد، نأخذ منها وندع، وفقا لمسلماتنا العقائدية والفكرية التى تميز شخصيتنا، باعتبارنا (أمة وسطا) بوأنا الله مكانة الشهادة على الناس، وكلفنا رسالة الحق والخير، وهداية البشرية للتى هى أقوم.

لا بد من معرفة ما وراء هذه العلوم وما تهدف إليه، وما جاءت به، وماذا فيها من العلم، وماذا فيها من الخلط، وماذا فيها من الهوى، لنأخذ ما نأخذ عن بينة، ونترك ما نترك عن بينة.

ملاحظات على العلوم الإنسانية:

ومن الملاحظ على هذه العلوم الإنسانية جملة أمور:

١ – الظنية:

أولا: أنها علوم ظنية تخمينية، لا تقوم على مقدمات يقينية، ولذا لا تعطى نتائج يقينية.

وهذا باعتراف أقطاب هذه العلوم أنفسهم، حتى قال العالم النفسى الشهير وليم جيمس عن علم النفس: أنه ليس علما، بل هو أمل علم.

وهذا ما اقتبسه اقتصادى أمريكى معاصر، هو جون . س . جانبس – وقال الكلمة نفسها عن علم الاقتصاد [١] .

وقال الدكتور آلكسيس كاريل : يجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة . فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية [٢] .

وسبب ذلك أن موضوع العلوم الإنسانية هو الإنسان، وهو مخلوق سريع التغير، ليس كالمعادن أو الفلزّات وغيرها من مظاهر المادة التى يمكن إجراء التجارب عليها، واستخلاص النتائج منها بثقة كبيرة .

كما أن المادة لا إرادة لها ولا عقل، ولهذا تحكمها القوانين الطبيعية وتضبطها، بخلاف الإنسان الذى يظهر ما شاء ويبطن .

والمادة هى المادة سواء كانت فى أدغال افريقيا أم فى سهول أوربا، تخضع لقوانين الحرارة والبرودة والتجمد والتمدد ... إلخ . أما الإنسان فهو ابن بيئته ووقته، يتأثر بالمكان، كما يتأثر بالزمان .

والإنسان الفرد يتغير تفكيره ومشاعره وسلوكه من مرحلة فى العمر إلى مرحلة، ومن حالة إلى حالة ، فهو فى الشباب غيره فى الهرم ، وهو فى الشدة غيره فى الرخاء، وهو فى المرض غيره فى الصحة، وهو فى الفقر غيره فى الغنى، حتى قال المتنبى :

يقضَى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن!

ثم إن كل إنسان من البشر يمثل فى نفسه (مملكة مستقلة) لها طابعها المميز عن غيره، فكما أن صوته لا يشتبه بأصوات الملايين غيره، وصورته تتميز عنهم، و(بصمته) تختلف عنهم . فكذلك شخصيته المعنوية .

---

(١) فى كتابه : (المدخل إلى علم الاقتصاد) ص ١٨٠ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص ٤٠ .

لهذا كان إجراء التجارب على نماذج (عينات) من البشر، ثم قياس الآخرين عليها، على اعتبار أنهم مماثلون لهم، لا يخلو من مجازفة، فالفروق ثابتة بيقين.

يقول البروفسور رينيه دوبو فى كتابه «إنسانية الإنسان»: «كل إنسان مخلوق فريد، ليس له نظير سابق، ولن يكون له نظير لاحق»[1].

وهذه الأسباب كلها وغيرها تبقى هذه (العلوم) فى دائرة (الظن والتخمين)، فلا ينبغى أن نتجاوز بها هذه الدائرة، وخصوصا فى أصولها النظرية واتجاهاتها الفكرية. ولا غرو أن تختلف اختلافا شديدا فيما بينها، فى مناهجها وفى نتائجها.

ومن ثم تكون تسميتها (علوما) من باب المجاز، لأن الأصل فى العلم أنه ما بنى على اليقين، وما يفيد اليقين. ولهذا قال القرآن عن اعتقادات المشركين من العرب: ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ [النجم: ٢٨]

وإذا كان هذا هو شأن مقررات هذه العلوم، فلا يجوز لمسلم أن يعارض بها النصوص الثابتة المحكمة من القرآن والسنة، كما يصنع ذلك بعض المتعجلين أو المغرورين بنتائج هذه العلوم، ممن لم يتعمقوا فى بحار الثقافة الإسلامية الأصيلة.

٢ - الذاتية:

ثانيا: أن هذه العلوم غير محايدة، إن الذاتية تلعب فيها دورا كبيرا، ووجهة النظر الدينية أو الأيديولوجية أو القومية لدى الباحث توجه تفكيره وبحثه، شاء أم أبى، شعر أو لم يشعر، فليس هناك إنسان قادر على أن

---

(١) بهذه الكلمة ابتدأ المؤلف - وهو من الحاصلين على جائزة نوبل فى العلوم - تمهيده لكتابه الذى يعد نقدا علميا للحضارة الغربية المعاصرة ص ٢٧ ترجمة د. نبيل صبحى الطويل نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

يتحرر من ذاتيته تحررا كاملا، ويتخلص من ضغط المؤثرات الثقافية والبيئية على عقله.

ولهذا رأينا للماركسيين (مدارس) فى علم النفس، وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، وتفسير التاريخ، وغيرها، تتجه إلى غيرما تتجه إليه المدارس الغربية التقليدية (الكلاسيكية).

وحتى المدارس الغربية كثيرا ما نجدها تختلف فيما بينها، فالمدرسة الاجتماعية الفرنسية، غير المدرسة الاجتماعية الأمريكية، ولكل منهما خصائصه وشخصيته.

وفضلا عن ذلك توجد أهواء متعمدة توجه بعض الباحثين فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لتحقيق أغراض خاصة لمصلحة شعب، أو طائفة، أو طبقة، أو حزب، أو غير ذلك.

وأشد ما يشين العلم - بعد اتباع الظن - اتباع الهوى، فإنه يعمى عن الحقيقة ويصمّ. ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾

[القصص: ٥٠]

ومن هنا حذر الله نبيه داود بقوله: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾

[ص: ٢٦]

وقد ذم القرآن المشركين فقال: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾

[النجم: ٢٣]

وأخطر الأهواء هى التى تلبس لبوس العلم، وهى ليست منه فى شئ، أو تدس الأباطيل الزائفة بين ثنايا الحقائق الثابتة، كما يدس السم فى العسل.

ولهذا وجدنا اليهود - تبعا لطموحاتهم فى السيطرة على العالم -

يحاولون النفوذ من خلال هذه العلوم لبث أفكارهم، وإشاعة آرائهم، – أو أهوائهم – المنبثقة عن اعتقاداتهم العنصرية والدينية.

وقد أشار الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد فى كتابه عن (الصهيونية العالمية) إلى ثلاثة من كبار اليهود كان لهم آثارهم الخطيرة فى مجال الدراسات الإنسانية، وهم فرويد فى مجال علم النفس، وماركس فى مجال الاقتصاد، ودوركايم فى علم الاجتماع.

وقد سمعت من شيخنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق: أن نحو ٨٠٪ من كراسى علم النفس وعلم الاجتماع فى أمريكا، كان يحتلها اليهود فى وقت من الأوقات.

٣ – الروح الغربية:

ثالثا: إن هذه العلوم فى صورتها المعاصرة علوم غربية. وما يدرس منها فى جامعاتنا ليس أكثر من ترجمة، إلا ما ندر، فالزعم بأنها علوم عالمية الوجهة، إنسانية الطابع، زعم مخالف للواقع. بل هى علوم عليها خاتم الفكر الغربى وتوقيعه. نظرتها إلى العالم من خلال الغرب، وإلى التاريخ العالمى من خلال تاريخ الغرب، وإلى الدين من خلال الممارسة الغربية، وتقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، مبنى على أحداث وقعت للغرب.

والعصور الوسطى عندهم عصور ظلام، لأنها هكذا كانت فى الغرب، بغض النظر عن أنها كانت العصور الذهبية للحضارة الإسلامية الشامخة.

فهذه العلوم للأسف بالنسبة لنا نحن العرب ،والمسلمين ليست محايدة، بل هى معارضة لخطنا الفكرى، واتجاهنا الحضارى، بل أكثر من ذلك أنها تحمل روح العداء لنا.

وسبب ذلك أنها تحمل رواسب موروثة من روح الحروب الصليبية ، كما أشار إلى ذلك الباحث الأوربى المهتدى إلى الإسلام ليوبولد فايس

(محمد أسد) كما وضّح ذلك فى كتابه القيم: «الإسلام على مفترق الطرق».

من عيوب النظرة الغربية للإنسان:

ولما كانت العلوم الإنسانية فى صورتها المعاصرة ابنة للغرب أو ربيبته فى حجره، رأيناها تحمل فى طيها فلسفة الغرب ونظرته للإنسان وعلاقته بالله وبالكون وبالحياة. وهذه هى آفة هذه العلوم.

(أ) إغفال الروح فى كيان الإنسان:

وعيب هذه النظرة الغربية للإنسان: أنها لا تنظر إليه من خلال طبيعته المزدوجة: مادة وروح، إنما تنظر إليه من خلال كيانه المادى، وجسمه المنظور، أما تلك النفخة الإلهية التى نسميها (الروح) فلا مكان لها فى النظرة الغربية.

حتى الذين نقدوا الحضارة الغربية وموقفها من الإنسان – مثل. د. الكسيس كاريل – لم يستطيعوا أن يخترقوا حجاب المادة، ليصلوا إلى عالم الروح. وكل تركيزهم على الجسم، وكل نشاط للإنسان فى الحياة – حتى النشاط الروحى والدينى – مرده إلى الجسم نفسه! فبحثهم يتركز حول الإنسان، باعتباره آلة أو ماكينة معقدة، ولكنها ليست من حديد، بل من لحم ودم.

ذلك أن كاريل وأمثاله من نقاد هذه الحضارة هم ربائبها وهم أسارى فى معسكرها!، فلا يسهل عليهم الفكاك من أُسرها، أو الإفلات من سجنها.

أما الإنسان فى نظر الإسلام، فهو كائن ذو طبيعة مزدوجة، فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، كما بين ذلك القرآن فى خلق آدم أول البشر ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [ص: ٧١ – ٧٢]

فإذا كان فى خلق الإنسان نوازع تشده إلى أسفل، إلى الطين، فإن بجوانحه أشواقا تجذبه إلى أعلى، إلى الأفق الذى يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾.

وإذا كان الجانب الطينى فى الإنسان يحتاج إلى غذاء من جهة الأرض التى خلق منها، فإن الجانب الروحى فيه يحتاج إلى غذاء من جهة السماء التى جاءت منها نفخة الروح. وبهذا ثبتت حاجة الإنسان إلى وحى الله. ليهديه صراطه المستقيم، وإلى عبادة الله ليشبع نهمه، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!.

هذه النظرة الغربية للإنسان التى لا تعترف إلا بجانبه المادى المنظور وبهيكله المحسوس، المكون من الأجهزة والأعضاء والخلايا، من العظم واللحم والدم والأعصاب – ترتب عليها محظور آخر، فى اعتبار الإنسان لنفسه، وقيمته فى الكون.

فالإنسان – ولا شك – من حيث حجمه شئ ضئيل ضئيل، فما قيمة جرم الإنسان بالنسبة إلى جرم الأرض؟ وما قيمة جرم الأرض بالنسبة إلى جرم مجرتنا التى نعيش فيها؟ وما نسبة هذه المجرة إلى المجرات الأخرى؟.

ولكن قيمة الإنسان ليست بهذا الجرم المادى، والغلاف الطينى، قيمة الإنسان فى الجوهرة الربانية التى أودعها الله فى الطين والحمأ المسنون، وهى التى استحق بها الإنسان التكريم والسجود من الملائكة ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾.

وقد كرم الله هذا الإنسان، واستخلفه فى الأرض، وحمله مسئولية كبرى ناءت بحملها السموات والأرض والجبال. يقول القرآن:

﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠]

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

وقد علمنا القرآن الكريم أن هذا الكون الكبير مسخر للإنسان، وليس الإنسان مسخرا للكون، يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]

وهذا ما جعل للإنسان قيمة كبرى فى الكون وإن صغر حجمه، وفى هذا يروون عن على - رضى الله عنه - قوله يخاطب الإنسان:

دواؤك فيك وما تشعر! ... وداؤك منك وما تبصر!

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر!

ولا ريب أن الإنسان كذلك من حيث عمره ضئيل ضئيل، فما قيمة سبعين أو مائة سنة بالنسبة إلى عمر الأرض، أو عمر الشمس، أو عمر الكون، كما قدره الجيولوجيون وغيرهم بملايين السنين أو بلايينها؟!

ولكن ميزة الإنسان: أنه لم يخلق لهذه الحياة العاجلة القصيرة. إنه خلق للخلود، وإنما يعد فى هذه الدار للبقاء فى دار القرار. وفى هذا يقول عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون - أى بعد الموت - من دار إلى دار.

ويقول الشاعر المؤمن: -

لا تظنوا الموت موتا، إنه ليس إلا نقلة من ههنا!

ويقول الآخر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى!

فالموت ليس فناء محضا، ولا عدما صرفا، كما يتوهم، ولو كان الموت عدما مطلقا لم يخلق، مع أن القرآن يقول: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك : ٢].

فلا مجال للعبثية إذن فى نظر الإنسان المسلم، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥ – ١١٦]

ويقول سبحانه: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص: ٢٧ – ٢٨]

إن كدح الإنسان فى هذه الدار الفانية ليس ضائعا، أنه غرس يجتنى ثمره يوم يلاقى ربه، وهو ملاقيه لا محالة، فيجزيه الجزاء الأوفى، وهو ما قررته كتب السماء، وأكده القرآن: ﴿ **أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٨ – ٤٢]

وما أجمل هذا النداء الربانى المباشر للإنسان: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ** ﴾ [الإنشقاق: ٦]

(ب) إغفال الدار الآخرة:

وعيب النظرة الغربية كذلك أنها تنظر إلى الإنسان من زاوية هذه الحياة الدنيا وحدها، وما لها فى الآخرة من خلاق، وكثيرا ما تنتهى هذه النظرة بالشعور بتفاهة الحياة، وسخافة الوجود، وما معنى أن يعيش الإنسان أياما تقصر أو تطول،

ثم يحكم عليه بالإعدام قسرا، وتطوى صفحته، وهو ما عبر عنه الدهريون قديما حينما لخصوا قصة الحياة بقولهم: إن هى إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع! ولا شئ وراء ذلك! أو كما قالوا «نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»!.

وهو ما عبر عنه الملاحدة من الوجوديين وغيرهم من المحدثين القائلين بعبثية الحياة، وفقدان أى معنى للوجود. ولهذا ما وراءه من الضياع والقلق والاكتئاب وما سماه سارتر (الغثيان).

(جـ) إغفال جانب العبودية لله:

وعيب النظرة الغربية كذلك للإنسان: أنها تعامله على أنه سيد مطلق فى الكون، فهى تضفى عليه بعض خصائص الألوهية وصفاتها، فهو يتصرف فى الكون وكأنه فيه وحده، فلا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول. وأغفلت الجانب الآخر من الصورة وهو: أن هذا الإنسان مخلوق لخالق عظيم، ومربوب لرب كبير، خلقه ولم يكن شيئا مذكورا، ومنحه العقل، وأعطاه الإرادة، وعلمه البيان، وهداه السبيل، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما.

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه سيد فى الكون عبد لله وحده، ولا تنافى بين سيادة الإنسان فى الكون وعبوديته لله، لأن عبوديته لله وحده تعنى تحريره من العبودية لكل ما سواه، فلا عبودية لحجر، ولا بشر ولا فلك، ولا حيوان ولا وهم، ولا شئ فى الأرض أو فى السماء. وفى هذا كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة: ﴿**تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٦٤]

هذا التوحيد هو جوهر الإسلام، وهو الأساس الحقيقى لتحرير الإنسان وسيادته فى الكون فى ظل عبوديته لله.

وبهذا تكتمل الصورة، وتتجلى الحقيقة: حقيقة هذا المخلوق الذى جاء إلى

الحياة بغير اختياره، ويخرج منها بغير اختياره، وهو – بين الحياة والموت – تحكمه قوانين كونية لا إرادة له فيها، ولا قدرة له عليها، فلا ينبغى له حينئذ أن يتعالى أو يطغى.

وهذا ما أراد القرآن أن يثبته من أول آيات نزلت من الوحى فى قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ – ٥]

فهذه الآيات الأولى تنوه بالإنسان وصلته بربه الخالق المعلم: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ** ﴾، ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾.

ومن أبرز النداءات الإلهية للإنسان فى القرآن قوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الإنفطار: ٦ – ٨].

(د) الزهو بمنجزات الحضارة المادية:

وعيب النظرة الغربية كذلك: أنها مزهوة بما أنجز الإنسان الغربى – بوساطة العلم – فى دنيا الحضارة المادية، ألم يقهر الطبيعة! ويحطم الذرة، ويغز الفضاء؟ ألم يقرب المسافات، ويختصر الزمن، ويسهل الحياة للناس عن طريق الآلة التى تتطور يوما بعد يوم؟ ألم ينجز (الثورة الألكترونية) و(الثورة البيولوجية) و(الثورة التكنولوجية) و(ثورة الإتصالات) و(ثورة المعلومات) ... إلخ؟؟

بلى، قد فعل الغرب ذلك كله. ولكن هل حقق ذلك السعادة للإنسان؟ هل سلم الإنسان من القلق والضياع؟ هل عاش الإنسان يحدوه الأمل والثقة والرجاء؟ هل هيأ ذلك للإنسان حياة يحقق فيها ذاته، وينمى خصائص إنسانيته، ويشعر معها أن لوجوده معنى وهدفا؟ هل شعر الإنسان بالأمن الروحى وسكينة النفس؟.

الواقع أن الإنسان الغربى يطير بجناح واحد، هو جناح (العلم) المادى التطبيقى، وأنه عطل الجناح الآخر: جناح الإيمان واليقين، وحقا إن العلم الغربى

قد هيأ للإنسان سبل الراحة والرفاهية، ولكنه لم يهيئ له السكينة التى هى روح الحياة، وسر السعادة. لقد أعطاه وسائل وأدوات، ولكنه لم يعطه مقاصد وغايات.

لقد غذى العلم جسم الإنسان، ولكنه لم يغذ روحه، أشبع معدته بألوان الطعام والشراب، ولكنه عجز أن يشبع قلبه وجوَّانيته.

استطاع أن يصعد بالإنسان إلى سطح القمر، ولكنه أفلس أن يحل مشكلاته على ظهر الأرض!.

ولقد قال أحد الأمريكيين المعاصرين: إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ أننا الجيل الذى رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص - إلى ركبته - فى الأوحال والقاذورات!.

ولكن الإنسان فى نظر الإسلام مخلوق لأهداف أعظم من مجرد الإنجازات المادية.

إنها - كما أوجزها الإمام الراغب الأصفهانى - ثلاثة:

العبادة لله: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الخلافة لله: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠].

العمارة للأرض: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود: ٦١].

المدرسة الإسلامية للعلوم الإنسانية:

وإذا كانت العلوم الإنسانية فى وضعها الغربى المعاصر: حافلة بالثغرات التى ذكرناها، فلا يجوز لنا - باعتبارنا مسلمين لنا هويتنا الدينية والأخلاقية والثقافية والحضارية - أن نأخذها كما هى، على أنها قواعد مسلمة، وحقائق ثابتة، بل ندرسها بعقول متفتحة، وبصائر نيرة، غير متعصبين لها ولا عليها، مستفيدين مما فيها من صواب، وجوانب إيجابية، متجنبين ما فيها من خطل وزلل، شأنها شأن كل جهد بشرى، وكل فكر بشرى، فهو يحتمل الصواب والخطأ، والاستقامة والانحراف.

فلا ينبغى لنا الإعراض عنها بالكلية، لأنها من إنتاج غير المسلمين، فالعزلة غير مقبولة ، كما لا يجوز لنا أن نأخذها بحذافيرها، على أنها حقائق علمية يقينية، فالتقليد الأعمى غير مشروع .

بل يجب أن ندرسها ونهضمها، ثم نعمل فيها – على ضوء عقائدنا وقيمنا ومفاهيمنا – يد التعديل والتنقيح، والحذف والإضافة .

وبعبارة أخرى : يجب أن تكون لنا مدارسنا المعبرة عنا فى هذه العلوم :

(المدرسة الإسلامية فى علم النفس)[1] .

و(المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع)

و(المدرسة الإسلامية فى علم التربية)

و(المدرسة الإسلامية فى علم التاريخ)

وهكذا فى سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية . وهذا واجب علينا وجوب كفاية ، حتي نكون بحق (أمة وسطا) ونكون – كما أراد الله لنا – شهداء على الناس .

* * *

(١) أوثر هذا التعبير (المدرسة الإسلامية فى علم كذا) بدل تعبير (علم النفس الإسلامى) أو (علم الاجتماع الإسلامى) ونحوها .

obeikandl.com

العلم المباح والعلم المذموم

ومن أقسام العلم التى ذكرها الغزالى فى (الإحياء): العلم المباح شرعا، والعلم المذموم شرعا.

العلم المباح:

أما العلم المباح، فضرب له الغزالى رحمه الله مثلا بالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها، والعلم بتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وهذا إذا كان بالنسبة للأفراد فهم مسلّم، فهو فى حقهم من المباح، الذى يمكن أن يتحول إلى طاعة بالنية الصالحة، بمعنى أن يقصد بتعلمه خدمة الدين، وإرضاء الله تعالى، وقد يصبح تعلمها واجبا على بعض الناس، لاعتبارات معينة، كما بينا فى كتابنا (ثقافة الداعية): أن الدراسة اللغوية والأدبية، والدراسة التاريخية - وخصوصا التاريخ الإسلامى - بدءا من السيرة النبوية وتاريخ الراشدين، وتاريخ العلماء والمصلحين - ودراسة العلوم الإنسانية ... كلها من الأدوات الضرورية للداعية. فهي واجبة وجوب الوسائل، أي إنها من (العلوم الآلية).

وأما بالنسبة للأمة - والحديث عن الفروض الكفائية الواجبة عليها - فأعتقد أن دراسة الأشعار والأدب - بفنونه المختلفة، ومنها: النقد الأدبى - وكذلك دراسة التاريخ - بتخصصاته المتعددة، وشعبه المتنوعة - من الفروض الكفائية على الأمة، فلا بد أن يوجد فيها متخصصون ملتزمون فى هذه المجالات، يعبرون عن فلسفة الأمة وقيمها وحضارتها، ويجعلون من دراستهم أداة بناء لها لا معول هدم لكيانها.

ولو ترك هذا المجال فارغا لملأه المتغربون، الذين تتلمذوا على خصوم الإسلام، وتكونت مفاهيمهم خارج أرض الأمة، وهذه الفئة لا تهتم بدينها ولا قيمها، ولا برسالتها ولا تراثها، بل تعادى ذلك كله.

وهذا ما عانيناه من ذوى الغرض والهوى من المستشرقين من الغربيين، والمستغربين من أبنائنا، الذين لم يتحصنوا بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخلق المتين، من المنتمين إلى اليسار من الماركسيين، أو إلى اليمين من الليبراليين، وكلاهما من العلمانيين، الذين يؤمنون بعزل الدين عن الحياة، إن لم يحارب بغير هوادة.

وكل علم من فروض الكفاية على الأمة، يعتبر تحصيله من المباح المشروع بالنسبة للأفراد، إذا وجد عدد كاف يقوم بفرض الكفاية، ويسدون الحاجة، بل يصبح هذا الأمر الجائز المباح قربة وعبادة لله، إذا صحت فيه النية وابتغى به وجه الله عز وجل.

العلم المذموم:

وذكر الإمام الغزالى هنا: المذموم من العلم، ومثل له بعلم (السحر والطلسمات)، وعلم (الشعوذة والتلبيسات).

وهذا صحيح ... فقد ذكر الله السحر فى كتابه وذمه أبلغ الذم، وقال على لسان الملكين اللذين يعلمان الناس السحر: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال فى شأن تعلمه: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ [البقرة: ١٠٢]

واعتبر النبى ﷺ السحر من السبع الموبقات (١)، أى المهلكات للفرد والجماعة فى الدنيا وفى الآخرة.

ومثل ذلك كل علم لا يقوم على أساس صحيح، أى لا يسنده حسّ ولا عقل ولا نقل، أو لا ينفع الناس فى دينهم ولا دنياهم، بل يعود عليهم بالضرر المادى أو المعنوى.

ومن ذلك: علم التنجيم، الذى يُدَّعى فيه معرفة الغيوب، وكشف

---

(١) فى حديث أبى هريرة المتفق عليه (اجتنبوا السبع الموبقات) وعد منها: السحر.

المستقبل بواسطة النجوم، فهذا محرم، لأنه ضرب من السحر، كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن عباس: عن النبى ﷺ: «من اقتبس علما من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»(١).

فهذا العلم لا يقوم على أساس منطقى أو تجريبى، وإن صدق فبالاتفاق والمصادفة، ولذا قيل: كذب المنجمون ولو صدقوا!

وهذا بخلاف «علم الفلك» المبنى على أسس رياضية وتجريبية، وقد برع المسلمون فيه أيام ازدهار حضارتهم، وبرع الغربيون فيه اليوم، وعلى أساسه استطاعوا الوصول إلى القمر، ويحاولون الوصول إلى الكواكب الأبعد.

أما (الشعوذة والتلبيسات) فليست علما من العلوم، يقوم على أى أساس من منطق العقل أو الحس أو الوحى، وإنما هى - كما يقول اسمها - أمور تقوم على التمويه والتزوير والتلبيس. فهى أولى أن تنسب إلى الجهل، لا إلى العلم، فإن العلم منها براء.

ومن العلم المذموم: كل علم لايقوم على أساس صحيح، لا من تجربة تقوم على الحس، ولا من برهان يقوم على العقل، ولا من دليل نقلى يستند إلي الوحى، إنما يعتمد على الأوهام والخرافات التى تروج بين العوام، وأشباه العوام، كالذى يروجه كهنة الأديان الوثنية وأمثالهم، ومثل ذلك المعارف التى تقوم - فى أصولها - على محض الظنون والتخرصات، مثل علم (تحضير الأرواح) ونحوه، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا. فما بالك بما هو أضعف من الظنون، وهى الأوهام ؟!

* * *

(١) رواه أحمد فى مسند ابن عباس برقم (٢٠٠٠) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح وأبو داود فى الطب (٣٩٠٥) وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) عن ابن عباس وصححه النووى فى (رياض الصالحين) وانظر: كلام الإمام الخطابى على الحديث فى (معالم السنن): ٥/٣٧١، ٣٧٢ والحافظ المنذرى عليه فى (الترغيب والترهيب). انظر: كتابنا (المنتقى) الحديث (١٨٥٩).

واجبات طلبة العلم

● **الفقه وحُسْن الفهم :**

أول واجبات العلم على طالبه أو صاحبه: أن يبذل فيه جهده، حتى يحكمه ويتقنه ويهضمه، وينتقل به من مرتبة «العلم» إلى مرتبة «الفقه» . الفقه بالمعنى القرآنى والنبوى لا بالمعنى الاصطلاحى، الذى معناه تحصيل علم الفروع على مذهب من المذاهب.

والفقه بهذا المعنى المنشود أخص من العلم، لأن معناه لغة: دقة الفهم والتفطن وحسن الإدراك، ومقتضى هذا ألا يقف عند الظواهر، وإنما يغوص إلى المقاصد، وألاَّ تشغله الألفاظ عما وراءها من معان، وألاَّ تغرقه الجزئيات فينسى الكليات.

والقرآن طلب منا النفير للتفقه فى الدين لا لمجرد التعلم، فقال تعالى: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

والحديث النبوى المتفق عليه يقول: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» (١) .

وأول مراتب هذا الفقه: أن ينتقل من الرواية إلى الدراية، من الحفظ إلى الفهم، فيفهم عن الله ورسوله مرادهما، ويسأل أهل العلم ويحاورهم حتى يفهم ويفقه .

وقد قال سَلَفنا: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما هو نور يقذفه الله فى القلب.

وفى الحديث الشريف: «رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه» (٢) .

---

(١) متفق عليه عن معاوية، كما فى «اللؤلؤ والمرجان» (٦١٥) .

(٢) جزء من حديث روى بصيغ مختلفة عن زيد بن ثابت وابن مسعود وأنس وغيرهم، وستأتى بعض صيغه. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٧٦٣ - ٦٧٦٦) .

والقرآن الكريم قد صوَّر لنا الذى يحمل العلم ولا يفقهه ولا يفهم أسراره، بالحمار الذى يحمل نفائس الأسفار (أى الكتب) ولا يدرى عما تحتويه شيئاً، وهذا ما وصف به القرآن اليهود فى عصر النبوة حين قال: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥].

وفى حديث الصحيحين عن أبى موسى[١] تشبيه العالم الفاهم المعلِّم بالأرض الطيبة التى قبلت الماء الذى نزل عليها من السماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وانتفع الناس بها، كما شبَّه العالِم الراوى بالأرض التى لم تقبل الماء، ولكنها احتفظت به، فشرب الناس منه، وسقوا وزرعوا، ففرَّق الحديث بين العلماء الوعاة، والعلماء الرواة، ومن هنا ركز علماء السَّلَف على الدراية أكثر من الرواية[٢].

إن آفة كثيرة من المشتغلين بعلم الدين خاصة هو «الحرفية» فى فهم النصوص، وجمودهم على ظواهر ألفاظه، وعدم وقوفهم على أسراره، لأنهم دون هذه المرتبة بحكم مؤهلاتهم العقلية والنفسية، ولكن مشكلتهم أنهم يضعون أنفسهم فى زمرة «الأئمة»، ويتصدرون الصفوف للدعوة، والتعليم والإفتاء!

وهؤلاء عادة يعوقون عملية الترشيد للمجتمعات، ويقفون عقبة فى طريق الإصلاح والتجديد الإسلامى، وكثيراً ما شكا منهم المجدِّدون الأُصلاء قديما وحديثا.

---

(١) نص الحديث: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منهاأجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة أخرى، إنما هى قيعان، لا تمسك الماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل مَن فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله، الذى أرسلت به» (متفق عليه) - اللؤلؤ والمرجان (١٤٧١).

(٢) انظر تقديم الفهم على الحفظ، والمقاصد على الظواهر، والاجتهاد على التقليد، من كتابنا «فى فقه الأولويات» ص ٦٦ - ٧٢.

ولقد رأيناهم أشد على دعاة التجديد والإصلاح من «العلمانيين» وخصوم الدين في بعض الأحيان، وقديماً قالوا: عدو عاقل خير من صديق أحمق.

* * *

● **الترقي عن التقليد :**

وثاني مراتب الفقه المطلوب: أن يرقى طالب العلم عن التقليد للغير، إلى الفهم المستقل، وأن يفكر برأسه هو لا برأس أحد سواه، حياً كان أو ميتاً، فإن الله منحه العقل ليتفكر به ويتدبر، لا ليجمده ويعطله.

وقد قال الإمام ابن الجوزي كلمة مضيئة ينبغي أن نعيها لتروى، ونرويها لتُحفظ، ونحفظها لتنفذ، قال في ذم التقليد والمقلِّدين في كتابه «تلبيس إبليس»: «اعلم أن المقلِّد على غير ثقة فيما قلَّد، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خُلق للتدبر والتأمل، وقبيح بمن أعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة»!

وعلماء المسلمين المحققون لم يعتبروا التقليد علماً، إنما العلم ما جاء عن طريق الحجة والاستدلال.

لقد شنَّ القرآن حرباً عنيفة على «المقلِّدين» الذين حقروا أنفسهم، وألغَوْا عقولهم، متبعين أجدادهم وآباءهم، أو سادتهم وكبراءهم، فيما اعتقدوه من عقائد، وما اعتنقوه من أفكار، وسفَّههم القرآن أبلغ تسفيه في سور عدة من القرآن المكي والمدني.

ويكفينا قوله تعالى في ذم تقليد الآباء: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٠ - ١٧١].

وفي ذم تقليد الكبراء قوله سبحانه - على لسان أهل النار - : ﴿ **وَقَالُوا**

رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧ – ٦٨].

وفى سورة الأعراف تتحدث الآية عن أهل النار، وتَلاوُم الأتباع والمتبوعين فيها وتلاعنهم، فتقول: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

والتقليد – كما يعرِّفونه – أن تأخذ قول الغير بغير حُجَّة بيِّنة تؤيده، فربما لم تكن معه حُجَّة قط. وربما كانت معه حُجَّة واهية لا تقف أمام حجج من يعارضه. ومصدر ذلك: التعظيم أو التقديس لذلك الغير، أضفاه عليه المقلِّد التابع، فرضى لنفسه أن يكون ذيلاً، وقد خلقه الله رأساً، وأن يكون عبداً فى فكره، وقد خلقه الله حراً.

واتباع الوحى ليس من التقليد فى شىء، بعد أن ثبت بالبراهين العقلية القاطعة نبوة النبىّ، وإلهية القرآن، بعد ثبوت ربوبية الرب الخالق المعلِّم الأكرم، وثبوت إلهية الإله العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، الذى ينافى حكمتَه ورحمتَه أن يدع خلقه هملاً، ويتركهم سدى.

وبعد ثبوت الوحى بالقواطع العقلية، يعزل العقل نفسه – بتعبير الإمام الغزالى – ليتلقى الهداية الإلهية التى تصحح للعقل أخطاءه، وتهديه فيما ليس له إليه سبيل من الإلهيات والغيبيات، وتضع الموازين والضوابط فيما يحتاج إليه، وتدع له حق التفسير والتعليل فيما أنزل إليه، مهتدياً بما بُيِّن له من ضوابط.. وتطلق له العنان فى اكتشاف ما فى الكون وتسخيره، بعقل المؤمن، وتفكير المهتدى بهُدَى الله.

إن أشد شىء على العقل خطراً – بعد اتباع الهوى – هو التقليد الأعمى، الذى لا نزال نراه فى حياتنا فى صور شَتَّى.

فهناك مَنْ بأعوا عقولهم – أو تنازلوا عنها بغير ثمن – لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحْدَثين.

هناك من المشتغلين بالفقه مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها، لأئمتهم المتقدمين، أو شيوخهم المتأخرين من الفقهاء.

وهناك من المشتغلين بالكلام والعقائد مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها لأئمتهم أو شيوخهم من السَّلَف أو الخَلَف.

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف مَنْ باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدى الغاسل.

وفى مقابل هؤلاء نجد آخرين من المغتربين، باعوا عقولهم أيضاً أو تنازلوا عنها – بغير ثمن – لأئمتهم وشيوخهم فى الغرب !

دعاة «الليبرالية» باعوا عقولهم لأئمة الليبراليين ! طالبين منا أن نتبعهم فى الخير والشر، والحلو والمر، وما يُحمد وما يُعاب.

ودعاة «الماركسية» – التى هُزمت فى عقر دارها – باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدراً للهداية والتشريع.

وكل دعاة الأيدلوجيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم، ودَعَوْنا إلى أن نلغى عقولنا معهم، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شبراً بشبر، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم، وأفكار سادتهم وكبرائهم، ويعرضوها على قواطع العقل، وثوابت الوحى، ليعرف صحيحها من زيفها، وجيدها من رديئها، وحقها من باطلها، فيهتدوا بالحق، ويعرضوا عن الضلال.. ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**﴾ [يونس: ٣٢]

إن الواجب على المسلم: أن يطلب الحق ويعرفه بالدليل الذى يقتنع به عقله، ويطمئن إليه قلبه، وأن يكون أسير الحجة لا الهوى ولا التقليد الأعمى، وأن يحرر عقله من العبودية للآخرين، الغرباء فى المكان، أو الغرباء فى الزمان.

لا يجوز للغرباء أن يتحكموا فى أهل الدار، ولا ينبغى للأموات أن يحكموا الأحياء، وأن يفتوا فى أخصِّ أُمورهم، وهم فى بطون قبورهم !

* * *

● **العمل بالعلم :**

ومن واجب العلم على صاحبه : أن يعمل بموجبه، فالعلم بالعبادات يقتضى أن يؤديها على وجهها، مستوفية شروطها وأركانها، خالصة لوجه الله تعالى. والعلم بالمعاملات يقتضى أن يقوم بها فى حدود الحلال، بعيدة عن الحرام، مستكملة الشروط والأركان. والعلم بالأخلاق يقتضى أن يتحلَّى بفضائلها ويتخلَّى عن رذائلها. والعلم بطريق الآخرة، يقتضى أن يعد لها عدتها، ويسعى لها سعيها، ويحذر من قواطع الطريق التى تعمل على أن تثبط إرادته، وتعوق حركته.

ولا يقتصر هذا على علم الدين وحده ، بل يشمل علوم الدنيا كذلك ، فالطبيب الذى يحاضر أضرار التدخين وهو يدخن ، والاقتصادى الذى يحذر من الإسراف فى الاستهلاك ، وهو مسرف ، والاجتماعى الذى يطالب بالمشاركة فى خدمة المجتمع ، وهو يعيش لنفسه . كل هؤلاء لم يعملوا بمقتضى علمهم ، وهم فى موضع الذم عند الله وعند الناس . والواجب على كل منهم أن يعمل بمقتضى علمه ، وأن يكون فى ذلك أسوة لغيره .

وبهذا يكون العلم حُجَّة له، لا حُجَّة عليه، ويستطيع أن يجد للسؤال جواباً إذا سُئل يوم القيامة « عن علمه : ماذا عمل فيه » ؟

فعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره : فيم أفناه؟ وعن علمه : فيم فعل فيه؟ وعن ماله : من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه : فيم أبلاه؟ » (١) .

ولا يكون كذلك العالم الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضربه الله مثلاً بالكلب فى أسوأ صورة له : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** ﴾ [الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦] .

---

(١) رواه الترمذى (٢٤١٩) وقال : حسن صحيح، وعن معاذ بن جبل نحوه، رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح، كما قال المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (المنتقى : ٢٢٥٥) .

وإنما ينتصر الدين، وترتقى الدنيا، بالعلماء العاملين، الذين يؤيد عملهم علمهم، وتصدق أفعالهم أقوالهم، فهم يؤثرون فى الناس بسلوكهم وحالهم، أكثر مما يؤثرون بكلامهم، ولهذا قيل: حال رجل فى ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل!

وإن من شر ما تُبتلى به الحياة، ويُبتلى به الناس: العالم الذى يناقض عمله علمه، ويكذب فعله قوله، فهو فتنة لعباد الله، وهو الذى حذَّر القرآن منه أهل الإيمان: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

ووبَّخ القرآن بنى إسرائيل بقوله: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولا غرو أن استعاذ النبى ﷺ من العلم الذى لا ينفع .. فعن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» (١).

وعن أسامة بن زيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلقُ أقتابه (أى تخرج أمعاؤه من مكانها)، فيدور بها، كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان؛ ما شأنك؟ ألستَ كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»!

قال أسامة: وإنى سمعته - عليه الصلاة والسلام - يقول: «مررتُ ليلة أسرِىَ بى بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض منْ نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أُمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون»! (٢)!

---

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى، وهو قطعة من حديث، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب - حديث (٨٣).

(٢) الحديث بشقيه متفق عليه، واللَّفظ لمسلم، انظر: المنتقى - حديث (٨٤).

وصوَّر النبى ﷺ العالم الذى ينفع الناس بعلمه ولا ينتفع به تصويراً بليغاً، حين قال: «مثل الذين يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل الفتيلة (يعنى: السراج، أو الشمعة) تضئ للناس، وتُحرق نفسها»! (١).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللِّسان»! (٢).

وسر هذا الخوف: أن هذا المنافق مزوَّق الظاهر، خرب الباطن، حلو اللِّسان، مُر العمل، فهو يغر الناس بظاهر علمه، ويسحرهم بمعسول كلامه، وقلبه خاوٍ من اليقين. فالمنافق الجاهل ليس من ورائه خطر يُذكر، إنما الخطر فى هذا المنافق العليم اللِّسان.

وعن عمر بن الخطاب قال: حذَّرنا رسول الله ﷺ من كل منافق عليم اللِّسان (٣).

ولهذا كان عمر كثيراً ما يستعيذ بالله من المنافق العليم، وقد سئل: كيف يكون منافقاً وعليماً؟ قال: عالم اللِّسان جاهل القلب!

وقال علىٌّ بن أبى طالب: قصم ظهرى رجلان: جاهل متنسِّك، وعالِم متهتِّك، ذاك يغر الناس بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!

* * *

● **تعليم العلم ونشره فى الناس:**

ومن حق العلم على العالِم: أن يُعلِّمه للآخرين، فقد علَّمنا الإسلام أن فى كل نعمة زكاة، فإذا كانت زكاة المال أن تنفق منه للمحتاجين، فإن زكاة العلم أن تُعلِّمه للآخرين، وهذا هو شأن «الربَّانيين» الذين ذكرهم الله فى كتابه

---

(١) رواه الطبرانى عن أبى برزة، وجندب - صحيح الجامع الصغير (٥٨٣٧).

(٢) قال المنذري: رواه الطبرانى فى الكبير والبزار، ورواته محتج بهم فى الصحيح، انظر: لمنتقى - حديث (٨٧). وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح (١/١٨٧).

(٣) رواه أحمد فى المسند، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح - الحديث (١٤٣، ٣١٠)، وقال الهيثمى (١/١٨٧): رواه البزار وأحمد وأبو يعلى ورجاله موثقون.

بقوله: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]

ولهذا قال السلف: الربَّانى هو مَنْ يتعلم، ويعمل، ويُعلِّم.

ورووا عن المسيح قوله: مَن عَلِم وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيماً فى ملكوت السماء!

وفى صحيح البخارى عن عثمان أن النبى ﷺ قال: «خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه».

ولقد تعلَّمنا من القرآن: أن الله تبارك وتعالى هو المعلِّم الأول لخلقه، فهو الذى ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥]، ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وهو الذى علَّم أنبياءه ورسله ليعلِّموا أممهم، فعلَّم آدم الأسماء كلها، وعلَّم إبراهيم، وعلَّم يعقوب، وعلَّم يوسف من تأويل الأحاديث، وعلَّم موسى، وداود وسليمان والمسيح، وعلَّم محمداً ما لم يكن يعلم.

وكان هؤلاء الرسل مُعلِّمين لأقوامهم، مُبلِّغين عن ربهم، مبشِّرين ومنذرين، وآخرهم محمد، الذى ذكر الله رسالته فى أربع آيات من كتابه يبين فيها أن مهمته الأساسية مهمة تعليمية تزكوية، ويكفى أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه: «إنَّ الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثنى معلِّماً ميسراً» (١).

فمَن أراد أن يتصف بصفة من صفات الله تعالى، وأن يتأسى برسله الكرام، وبرسوله الخاتم الكريم، فليعلِّم الآخرين.

---

(١) رواه مسلم - عن عائشة.

فعن أبى أُمامة قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»، ثم قال: «إنَّ الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت، ليصلُّون على مُعلِّم الناس الخير» (١).

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلَّطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها» (٢).

والحسد يُطلق ويُراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود، وهذا حرام ما لم يكن يستخدمها فى معصية الله. ويُطلق ويُراد به: الغبطة، وهو: أن يتمنى أن يكون مثله، وهذا محمود، وهو المراد هنا.

وقال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهم يتفقهون فى الدين ليُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار: تعليم وإرشاد مقرون بالترغيب والترهيب.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ أصحابه على أن يُبلِّغوا عنه كل ما يأخذونه عنه من قرآن أو حديث.

روى عنه عبد الله بن عمرو: «بلِّغوا عنى ولو آية» (٣).

وروى عنه ابن مسعود: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع» (٤).

---

(١) رواه الترمذى (٢٦٨٦) وقال: حسن صحيح غريب، ورواه البزار مختصراً عن عائشة: «معلِّم الخير يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر»، وقال الهيثمى (١/١٢٦): رواته موثقون.

(٢) متفق عليه عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخارى وأحمد والترمذى (صحيح الجامع الصغير: ٢٨٣٧).

(٤) رواه الترمذى (٢٦٥٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (١/٤٣٧)، وابن حبان (الموارد: ٧٤، ٧٥)، وقد روى هذا الحديث عن عدد من الصحابة.

وروى عنه جبير بن مطعم: «نضر الله عبداً سمع مقالتى، فحفظها ووعاها، وبلّغها مَن لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه» (١).

نبّه الحديث على أن حامل العلم قد يحفظه، ولكنه غير قادر على الاستنباط منه، فهو ينقله إلى غيره ممن هو أفقه وأقدر على استخراج الحكم منه. فيشاركه فى الأجر.

وكل مَن علّم العلم أو بلّغه ونشره، فله أجر مَن انتفع به، إذا صحّت بذلك نيته، وابتغى وجه الله فيه، فعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» (٢).

وقال النبى ﷺ لعلىّ: «فوالله لأن يهدىَ الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمْر النَّعم» (٣). والنعَم: الإبل. وحُمْرها: أغلاها وأنفسها عند العرب.

وقال عليه الصلاة والسلام: «على خلفائى رحمة الله» قيل: ومَن خلفاؤك؟ قال: «الذين يحيون سُنَّتى ويُعلّمونها عبادَ الله» (٤).

وهكذا مضى الربَّانيون من علماء الأُمة هداة معلّمين، لا يضنون بعلم على مَن طلبه، بل يكرهون أن يحيوا ولا يستفيد منهم أحد.

قال عطاء: دخلتُ على سعيد بن المسيِّب، وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألنى عن شىء!

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى من طريق محمد بن إسحاق، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهرى، وإسنادهما حسن كما قال المنذرى فى الترغيب. انظر: المنتقى - حديث (٦٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، و«مجمع الزوائد: ١/١٣٩»، ورواه أيضاً الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى (١/٨٦ - ٨٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) متفق عليه عن سهل بن سعد.

(٤) قال الحافظ العراقى: رواه ابن عبد البر فى العلم، والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن. فقيل: هو ابن علىّ، وقيل: ابن يسار فيكون مرسلاً. ولابن السنى وأبى نعيم فى «رياضة المتعلمين» من حديث علىّ نحوه.

وقدم سفيان الثورى عسقلان، فمكث أياماً لا يسأله إنسان. فقال: اكْرُوا لى (أى: استأجروا لى دابة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم!

وقال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم! أى أن العلماء يخرجونهم بالتعليم من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأُمَّة محمد من آبائهم وأُمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وكل من ساهم بجهد أو مال فى نفع الناس بالعلم: بالنسخ أو الطباعة أو النشر، أو وقف الكتب، أو إنشاء المكتبات، أو نشر الأشرطة المسموعة والمرئية، أو استخدام شبكة الانترنت ونحوها – ناهيك بإنشاء المادة العلمية وتأليفها شفاها أو كتابة – كل هؤلاء لهم نصيبهم من الأجر على قدر نيتهم. ولا يضيع الله أجر من أحسن عملا.

* * *

● **وجوب البيان وتحريم الكتمان:**

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم فى دين الله، فإنه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم، مما ينفع الله به الناس من البيِّنات والهدى، فإن زكاة العلم – كما ذكرنا – نشره وبثه، لا كنزه وحبسه.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[البقرة: ١٥٩ – ١٦٠].

والآيتان نزلتا فى شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، الذين كتموا صفات النبى ﷺ فى كتبهم، بالحذف أو الإخفاء، أو التحريف. ولكن اللَّفظ عام يشمل كل مَن كتم من دين الله علماً يُحتاج إلى بثه.

فلا يجوز للعالم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع، ومَن قصد ذلك فهو عاصٍ آثم، وإذا لم يقصد إلى الكتمان وكان فى الناس مَن يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رُفع عنه الإثم، فإن البيان فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحَرَج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلِّغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم «أُمَّة» أى جماعة وقوة، كما أمر الله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

ويتعين البيان على العالم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أمور دينه العاجلة، ممّا لا يسعه تأخيره، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالاً على غيره، حتى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك، ما لم يكن ذلك فوق طاقته وقدرته.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار» (١).

ذلك أن من حق السائل المتعلم على العالم أن يجيبه ويعلِّمه، ما لم يكن متعنتاً ولا متنطعاً، يتتبع الغرائب وأُغلوطات المسائل، فقد ورد النهى عن هذه الأغلوطات، وأدَّب عمر سائلاً عُرف بذلك.

كما يحرم على العالم المسلم: السكوت عن البيان العلمى باللِّسان أو القلم إذا ترتب على سكوته التباس الحق بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للَّبْس، وإيضاحاً للحق، فإن البيان هنا من باب الشهادة التى يحرم كتمانها: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ** ﴾[البقرة: ١٤٠].

وقد ضرب القرآن لنا مثلاً بعلماء السوء من اليهود والنصارى الذين كتموا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنَّه، وابن ماجه وابن حبان فى صحيحيهما، والبيهقى، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ما أنزل الله، ابتغاء عَرَض الدنيا، فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥].

وإن في هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الذين يجارون الملوك الفاسقين، والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحق وهم يعلمون، فكيف بالذين يحلُّون لهم الحرام، ويسقطون عنهم الفرائض، ويمدونهم بالفتاوى الجاهزة لكل بدعة يبتدعون، وكل منكر يقترفون؟!

تحريم نشر العلم أو الفكر الضار:

وإذا كان تعليم العلم النافع ونشره على أوسع نطاق: واجبا شرعا، وكان كتمانه عن طالبه واحتاج إليه حراما يوجب اللعنة على كاتمه، فإن نشر العلم أو الفكر الضار بالناس في دينهم أو دنياهم: حرام ومنكر، وتجب مقاومته، حماية للناس من شره.

وهذا واجب الراسخين من أهل العلم والفكر، وواجب الدولة معهم.

وإذا كانت الدولة تحمي مواطنيها من (المخدرات) التي تغيب عقولهم، وتدمر شخصيتهم، فأوجب عليها أن تحميهم من سموم (المخدرات العقلية) التي تغيب وعي الناس بحقائق الدين والحياة والكون والإنسان، والتي تضللهم عن الغاية، وتبعدهم عن الطريق القويم.

ومن ذلك: الكتب التي تنشر الأساطير والخرافات باسم الدين، مما لا يعتمد على عقل صريح أو نقل صحيح، وإنما عمدتها: الأحاديث الموضوعة، والحكايات المكذوبة، والاسرائيليات المضللة، والمبالغات المرزولة.

ومنها : كتب دعاة (التنصير) وأشباههم ، الذين يلفقون الأكاذيب حول الإسلام وبنيه ، وكتابه ، وعقيدته ، وشريعته ، ورجاله ، وتراثه وحضارته .

ومنها : كتب العلمانيين ، ودعاة (الغزو الفكرى) الذين يريدون أن يسلخوا الأمة من جلدها ، ويخرجوها من هويتها ، حتي تتنكر لدينها وقيمها ومواريثها الثقافية ، وبذلك يسهل اختراقها من داخلها ، وتحويلها إلى أمة أخرى تدور فى فلكهم ، وتسير فى ركابهم . وبهذا تجد توافقا بين هذا الفريق والذى قبله ، لأن الوجهة واحدة : تغيير هوية الأمة .

يعمل هؤلاء وأولئك على زعزعة العقيدة ، وتشويه الشريعة ، وتمييع السلوك ، والنتيجة : تحطيم روح الأمة ، وإذابة مقوماتها ، وتهديم حصونها من الداخل .

لا يكتفى هؤلاء بالكتب لنشر أفكارهم المسمومة ، بل يعتمدون كل الوسائل الممكنة ، مشروعة أو غير مشروعة ، من الكلمة المقروءة ، والكلمة المسموعة ، والكلمة المرئية ، وشبكة الإنترنت ، ويسخرون الأجهزة الحديثة لغايتهم ، من الصحافة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسينما ، وغيرها فهم يحملون وزرهم ووزر من أضلوه إلى يوم القيامة .

كما قال تعالي : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ** ﴾ [النحل : ٨٨].

وقال سبحانه : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهى أثقال من أضلوهم عن سواء السبيل .

وفى الحديث الصحيح : « من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » رواه مسلم .

وعلى علماء الأمة ومفكريها : أن يكشفوا زيف هذا الفكر ، ويبينوا عواره وبطلانه ، إذا أتيحت له الفرصة للظهور ، كما هو مشاهد اليوم ، حتى إنه تمكن

من بعض الأجهزة وسيرها لحسابه ، تسنده فى ذلك قوى خفية وظاهرة من الداخل والخارج .

ولكن مناعة الأمة الذاتية أقوى ، إذا وجدت من يبصرها ويضيئ لها الطريق، من العلماء العاملين ، والدعاة الصادقين ، وهم موجودون أبدا ﴿ **فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

* * *

● **الوقوف عند ما يعلم :**

ومن الواجبات المفروضة على العالم : أن يقف عند حدود علمه، ولا يتطاول إلى ما ليس من شأنه، ولا فى طاقته . كالعلم بكُنْه الذات الإلهية، فإن الإنسان قد عجز عن معرفة كُنْه نفسه، فكيف يطمع فى معرفة كُنْه ربه عَزَّ وجلَّ؟ وقد قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه:١١٠]

وكذلك معرفة الغيب المطلق الذى استأثر الله بعلمه : ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [النمل: ٦٥] .

ومن ذلك : علم الساعة الذى لم يطلع الله عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبياً مرسلاً، وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عنها : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل »، وقال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وأولى بالإنسان أن يدخر طاقته العقلية ليبذلها فيما يستطيعه، وفيما يعود عليه بالخير فى دينه ودنياه .

ويجب على العالم المسلم إذا سئل عما لا يعلم، أن يقول : لا أعلم . فليس فى العلم كبير، وفوق كل ذى علم عليم . وليس هناك مَن أحاط بكل شىء علماً غير الله سبحانه، وكل بَشَر يعلم شيئاً وتغيب عنه أشياء . وقد سُئل النبى ﷺ عن أشياء، فلم يجب عنها حتى نزل عليه الوحى .

وقال ابن مسعود : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون !

وقال غيره: مَن قال: «لا أدرى» فقد أجاب. ومَن أخطأ قول: «لا أدرى» أصيبت مقاتله!

وكم سُئِل من كبار الأئمة – مثل الإمام مالك – فلم يستنكف أن يقول: لا أدرى.

وكان الصحابة إذا استفتوا أحال كل منهم السائل على صاحبه، خشية من تبعة الفتوى.

وكان ابن عمر يتهيب الفتوى، ويقول لمن سأله: اذهب إلى الأمير فاسأله. ويقول لصاحبه: أتدرى ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يتخذوا ظهورنا جسراً إلى جهنم!

وبكى بعض علماء السَّلَف، فسئل فى ذلك، فقال: استُفتى اليوم مَن لا علم عنده!

فكيف لو شاهد عصرنا، ورأى مَن يُستَفتَون، ومَن يُفتُون؟!

ولقد ابتلينا فى عصرنا ببعض المجترئين الذين استباحوا حمَى الشريعة، وأمسَوْا يحلِّلون ويحرِّمون، ويوجبون ويسقطون، ويُبدِّعون ويُفَسِّقون، بل يُكَفِّرُون، لمجرد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفى بعض العلوم، ولم يعيشوا فى جو العلم، ولا طلبوه من شيوخه، ولم يتقنوا أدواته، ولم يملكوا مفاتيحه، ومع هذا أفتَوْا فى أعوص المسائل، وحكموا فى أغمض القضايا، واعترضوا على أكابر العلماء، وطعنوا فى أئمة المذاهب، وساوَوْا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين، وقال قائلهم: هم رجال ونحن رجال!

وهذا هو الذى يؤذن بضياع الدين، وخراب الدنيا، كما فى الحديث المتفق عليه: «إنَّ الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالِم، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»(١).

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو (اللؤلؤ والمرجان: ١٧١٢).

وأشد الأمور خطراً: أن يفتى المرء فيما لا يعلمه ويستيقنه من دين الله، فَيُحرِّم أو يُحلِّل بغير بينة وبرهان من ربه، وهنا يكون الإثم على المفتى إذا كان المستفتى مخدوعاً فيه، وإن كان عليه أن يتحرَّى ويبحث عمن يستفتيه فى دينه، ويعلم منه شرع ربه.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ: «مَن أُفتِىَ بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره، فقد خانه» (١)

وقد ذكرنا من قبل ما حدث فى عهد النبوة أن أصابت رجلاً مسلماً جراحة، ثم أصابته جنابة، فأفتاه بعض الناس بضرورة أن يغتسل، فعمل بفتواهم، فتفاقم جرحه، فمات منه. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال منكراً عليهم: «قتلوه، قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العى السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه»(٢).

فأخبر النبى ﷺ أنهم قتلوه، ودعا عليهم بقوله: «قتلهم الله» فدلنا هذا على أن من الفتاوى ما يقتل، وليس كل القتل قتلاً مادياً، لعل القتل المعنوى أشد خطراً من المادى، وأخطر منه قتل الجماعة، وإزهاق روحها بالفتاوى الجاهلة.

* * *

فضائل يجب أن يتصف بها المعلم:

وعلي المعلم: أن يخلص النية فى تعليمه، ويعتبر عمله عبادة يبتغى بها وجه الله، فهو يقوم بوظيفة الرسل، المصطفين فى هداية الناس وتعليمهم الخير.

وعليه أن يعتمد منهج التيسير والتبشير، لا التعسير والتنفير، كما أمر النبى ﷺ أمته، فقد قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» متفق عليه.

---

(١) رواه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٦٨)، وفى ابن ماجه والحاكم: «مَن أُفتى بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه» - المرجع نفسه (٦٠٦٩)

(٢) رواه أبو داود، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه : «إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا» (١) .

وقال لأصحابه : «إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين» (٢) .

ومن التيسير المطلوب : الرفق بالمتعلم ، والإشفاق عليه وإن أخطأ ، فالمعلم هو الأب الروحى للمتعلم ، فيجب عليه أن يصطحب روح الأبوة عند التعليم . كما جاء فى الحديث : «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» (٣) . وروح الأبوة لا تمنع من التأديب ، وضرورة التنبيه على الخطأ ، وخصوصًا إذا مس حقوق الآخرين وحرماتهم ، وينبغى أن يشتد فى التنبيه والزجر إذا كان الخطأ يمثل إتجاها منحرفا لمجموعة من الناس ، كالتشدد فى الدين ، وابتداع رهبانية فيه ، والخروج عن المنهج النبوى الذى يقوم على اليسر والاعتدال «فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٤) .

ومن التيسير فى التعليم : أخذ الناس بالتدرج ، فينتقل بالمتعلم من السهل إلي الصعب ، ومن البسيط إلي المركب ، ولذا قال السلف : الربانى الذى يعلم بصغار العلم قبل كباره .

ومن هنا شرع الله لعباده فى مكة : العقائد وأصول الفضائل ، قبل الدخول فى الشرائع والأحكام ، وكانت مهمة الرسول الكريم طوال العهد المكى غرس الإيمان الحق وأصول الأخلاق فى نفوس أصحابه ، قبل كل شئ ، ليعدهم لحمل الأمانة الكبرى فيما بعد : أمانة التكاليف الإسلامية ، والدعوة إليها ، والجهاد فى سبيلها .

---

(١) رواه مسلم عن عائشة فى كتاب الطلاق من صحيحه (١٤٧٨) .

(٢) رواه البخارى فى الوضوء عن أبى هريرة .

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٤) متفق عليه عن أنس .

ولهذا لا ينبغى للمعلم الرشيد : أن يخوض بتلاميذه فى بحار المختلف فيه، قبل أن يتقنوا المتفق عليه . فإن البدء بالخلافيات يشتت الذهن ، ويشوش الفكر.

وإذا كان هناك بعض المعارف فوق طاقة من يعلمهم ، فيجب عليه أن يؤجلها ، حتى ينضج تفكيرهم ، ويتهيأوا لتلقيها ، وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

وقال علىّ كرم الله وجهه : حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟!

ويجب عليه ألا يكون همه حشو الرؤوس بالمعلومات وحسب ، بل تزكية الأنفس بالفضائل والصالحات ، وأن يربى بالقُدوة والحال ، أكثر من التربية بالمقال . وبذا يكون من معلمى الناس الخير (١) .

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) انظر : التعليم ومبادئه وقيمه ، من كتابنا (الرسول والعلم) ص ١١٤ – ١٥٨ نشر مكتبة وهبة .

obeikandl.com